# الفصل السابع

obeikandl.com

# تاريخ العرب الثقافى

## فى عهد آل عثمان

- موقف آل عثمان حيال الثقافة بوجه عام :

رافقت حكم المماليك بمصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية ، فضلا عن التآليف الدينية واللسانية ، وكانت هذه الحركة براقة جدا ، حتى يكاد المشرف عليها يتوهم أن بعثا جديدا قام فى البيئات العربية .

ولكن إذا ضاع الحظ فالكوارث تخلفه آخذا بعضها برقاب بعض . فإن حملة جديدة أخذت تتدفق بعد المغول من أقصى الشرق أيضا ، فتغمر العالم العربى ، وتجعله نسيا منسيا ، وكان قوام تلك الحملة الترك ، الذين انبثقت منهم سلطنة آل عثمان .

هذا ، وكانت اللغة العربية حتى ذلك العهد لاتزال لغة العلم والسياسة ، فعدلت عنها هذه السلطنة إلى اللغة التركية ، فأودت بكنوز العرب العلمية ، وألقتها فى زاوية من الإهمال .

كان المفروض فى آل عثمان الذين أتيح لهم أن يخلفوا العرب على الشرق الأوسط ، وتسنى لهم أن يقوموا على أنقاض البيزنطيين ، أصحاب قسطنطينية وما حولها ، كان المفروض فيهم أن يستثمروا مخلفات هاتين الأمتين ، ويسيروا على أقل تقدير فى مواكب الحضارة الحديثة التى برزت فى عصرهم الذهبى .

ولكن آل عثمان لم يكونوا على استعداد للمحافظة على ذينك التراثين العلميين : تراث الماضى وكنز الحاضر ؛ كما أن الأحوال السياسية صرفتهم عن كل شىء آخر غير القوة العسكرية ، طوال حياة بدأت بالهجوم وانتهت بالدفاع .

ونحن مع ذلك لا ننكر أن المؤسسين من سلاطين آل عثمان حاولوا التشبه بالخلفاء والملوك السابقين ، من حيث تقريب أهل العلم وإنشاء المدارس ، فضلا عن أن بعضهم كان على حظ وافر من العلم والأدب . فأورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٠ م ) وهو ابن عثمان مؤسس السلطنة ، اتخذ العلماء أهل شوراه ، وعهد إليهم فى إدارة المدارس التى افتتحها ، وأشهرها فى أزنيق . ثم لما استتب الأمر لجلبى محمد ( ١٤١٣ — ١٤٢١ ) انصرف للعناية بالعلم عنايته بالعمران ؛ وكان عربشاه السورى فى جملة العلماء اللامعين بين حاشيته. وجرى مجراه مراد الثانى (١٤٢١ — ١٤٥١) وكانت « بورصة » قاعدة الدولة فى أيامه ، تعتبر كقاعدة للعلم أيضا فى الشرق الأدنى .

وأما محمد فاتح القسطنطينية ( ١٤٥١ — ١٤٨١ ) فقد قال عنه درابر : Drapper (Hist intellectual de L'Europe) : كان يتكلم بخمس لغات، فضلا عن معرفته العلوم الرياضية ، وهو قد أحيا فى القسطنطينية عصرها الثقافى ، بما أنشأ فيها من المدارس ، ونخص بالذكر منها « دار الفنون » . على أن عنايته بالعلم لم تقتصر على قاعدة الدولة ، بل تعدتها إلى « بورصة وأزنيق وأدرنة » ، وكان كل منها حافلا بجمهور من أهل الفضل .

وكان السلطان سليم الأول ( ١٥١٢ — ١٥٢٠ ) شاعرا ، وله آثار فى اللغات التركية والفارسية والعربية ، وما إن فتح مصر والشام فالعراق ، حتى أخذ ينقل إلى بلاده المؤلفات العربية ، ويستقدم الأدباء والعلماء والصناع ، ثم قدر لابنه السلطان سليمان ( ١٥٢٠ — ١٥٦٦ ) أن يبز أباه فى الشهرة ، ولقب بالقانونى لوضعه قوانين الدولة ونظمها .

بيد أن السلطنة أخذت تتدهور بعد هذا السلطان ، وتتمرغ فى حياة مزقتها الكوارث ، فانطوت على نفسها ، وأصبحت على حال من الحذر جعلها ليست بعيدة عن مجاراة أوربة فى تمدنها فحسب ، بل تتجنب كل شىء يصدر عن الغرب .

وهكذا ، نجد أن الأمصار العربية التي كانت مباءة العلم وأهله قبل آل عثمان ، أمست في عهد هؤلاء في عزلة عن النهضة العالمية الحديثة مدة أجيال ، وهي لاتحتفظ من تراثها الثقافي إلا بالعلوم اللسانية والدينية ، ولا تستبقي من مدارسها الكثيرة إلا حلقات المساجد ، وكتاتيب تحمل أسماء مدارس . وأما أموال الأوقاف التي حبست على معاهد العلم والمؤسسات الخيرية ، فقد أصبحت نهبا للمتنفذين . ولولا بعض المعاهد الدينية كالأزهر في مصر ، والقرويين بفاس ، والزيتونة بتونس ، والأعظم بالقيروان ، والأموي بدمشق ، ولولا كربلاء والنجف وسامرا في العراق ، هذه المعاهد التي قدر لها أن تحتفظ بشيء من أوقافها ، لدرست الآداب العربية في تلك العصور المظلمة ، واندثرت معها تعاليم الإسلام .

على أن الانحطاط شمل مع ذلك ما تبقى في ديار العرب من العلوم الدينية واللسانية ، فصاروا في الناحية الدينية ، يرجحون الغريب السخيف ، على المعقول والموزون . وأمسوا في الناحية الأدبية يختارون المحاسن اللفظية ، دون المعاني والفنون . أما تآليف ذلك العهد فكانت تحوم حول الكتب القديمة ، فتعمد إلى تطويل ما كان منها موجزا ، واختصار المسهب ، وفي الحالين كانت شعلة الفكر منطفئة ، لا نار فيها ولا نور .

ومن مشاهير ذلك العهد المؤلف الشهاب أحمد الخفاجي المصري (١٠٦٩هـ—١٦٥٨م) والشاعر ابن النحاس الحلبي « ت ١١٥٢هـ = ١٦٤٢م » والأديب عبد القادر البغدادي « ت ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٣م » صاحب كتاب خزانة الأدب .

وأما الشعب فقد أمسى أميا على وجه عام ، وإذا أتيح لواحد منهم أن ينال نصيبا من علم أو أدب تقلد دواته المستطيلة في صدر حزامه العريض ، ومشى مباهيا يترقب أن يشار إليه . وقد روى لنا أسلافنا أن الأمية استحكمت في بعض المدن العربية ، ومنها بلدنا بيروت ، إلى حد أن تجارها كانوا يعتمدون

فى كتابة رسائلهم ، وتسجيل حساباتهم على نفر قليل ، قدر لهم أن يقرءوا ويكتبوا ، وأن يمتهنوا هذه الحرفة . ولكن بعثا جديدا شمل العالم العربى منذ القرن التاسع عشر ، وأخرجه من هذه الظلمات إلى النور ؛ وهذا ماسنحاول عرضه بكلامنا التالى .

ب — تطور مصر الثقافى فى عهد آل عثمان :

١) لما تغلب الأيوبيون على مصر ( ٥٦٧ هـ = ١١٧١ م ) حرص السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة ، على مكانة مصر العلمية ، التى كان الأزهر محورها ، فعززها بالمدارس ، وحذا حذوه خلفاؤه ، فكثرت المدارس على عهدهم ، وقام بالتدريس فيها بعض أعيان العلماء ، كابن زين النجار الشافعى ، والشريف القاضى شمس الدين بن محمد الحنفى ، وقاضى القضاة أبى على الحسين المالكى ، والإمام أبى محمد الشاطبى ، وتلميذه أبى محمد بن عمر القرطبى ، وغيرهم من جلة العلماء وكبارهم .

وكانت تلك المدارس تعنى بعلوم الدين واللغة ، ولا سيما فقه المذاهب الأربعة ؛ فانتقلت بذلك حركة التعليم من أبنية جامع الأزهر إلى تلك المدارس ، وأصبحت منهل العلوم فى ذلك العصر .

غير أن الأزهر استعاد مكانته فى عهد المماليك البحرية ، الذين خلفوا الأيوبيين على مصر ، فجدد الظاهر بيبرس البندقدارى منذ تولى الحكم ( ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م ) شبابه ، وأعاد إليه نشاطه العلمى ؛ وسار على أثره ملوك وأمراء جاءوا من بعده ، فكانت نهضة مباركة ، حملت العالم الإسلامى — بعد سقوط بغداد فى حوزة المغول ، وإتلاف كتبها وذخائرها العلمية — على الاتجاه بأنظارهم وأفئدتهم شطر مصر ، وخصوصا أنها قد أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ، بعد الكارثة المغولية التى حاقت بالعراق .

وأصبحت مصر بأزهرها المثابة المرجوة للمسلمين ، وكانوا يقصدونها ، طلب العلم من جميع الأقطار ، حتى إذا دخلها السلطان سليم العثمانى فاتحا ، أصابها ما أصاب الأمصار العثمانية من الفوضى والاضطراب ، وأضاعت من جراء ذلك عمرانها وعلومها وفنونها ، وخسرت ذلك الازدهار الذى كان يتمتع به الأزهر ، ولا سيما فى عهد المماليك البكوات المظلم . وقد زار الرحالة فولنى Folney مصر أواخر القرن الثامن عشر ، فلم يتمالك عن الإعراب عن عجبه ، للجهل الشامل الذى كان يحيق بها فى كل طبقة من طبقاتها .

٢) على أنه لو أتيح لهذا الفيلسوف الفرنسى أن يعود لمصر بعد نحو ربع قرن من وضع كتابه ، لارتاب فى صحة مادونه عن هذا القطر الشقيق . فقد عرضت وقتئذ مفاجآت سياسية سرعان ما عملت على إخراج وادى النيل من عزلته ، وألقت فى رحابه أسس النهضة الحديثة .

ذلك أن الحملة التى ساقها نابليون الأول على مصر ، لم تكن ذات صبغة عسكرية فحسب ، بل كانت فى الواقع حملة علمية بما رافقها من بعثات علمية وفنية ، وبما وضعته من مشروعات مختلفة . حملة علمية اكتسحت الشرق الأوسط ، وصوبت سهامها إلى الفساد الذى كان يغشى بصره وبصيرته ، فتراجع الجيش الفرنسى ، ولكن هذه الحملة العلمية لم تتراجع . وكان فى فى عداد المشروعات التى قامت بها : المكتبة العامة ، ومدرستان لأولاد الفرنسيين ، وجريدتان باللغة الفرنسية ، فضلا عن مسرح للتمثيل ، ومجمع علمى مصرى .

ولما تولى مصر محمد على باشا رأس الأسرة العلوية (١٨٠٥م) ، وسمت نفسه إلى الاستقلال ، صرف همه إلى الجند وتنظيمه على الأساليب الحديثة ، التى لمس فوائدها خلال الحملة الفرنسية على مصر ، فأنشأ المدرسة التجهيزية الحربية (١٨٢٥) ، وافتتح المعهد الطبى إلى جوار المستشفى العسكرى بأبى زعبل

(١٨٢٧) ، وعمد إلى إرسال بعثات الطلبة لأوربة . وما إن عاد هؤلاء إلى وطنهم، حتى خطوا إلى تأليف مجلس خاص بالمدارس ، كان من مآتيه إنشاء مدارس ابتدائية وثانوية فى أنحاء القطر، على المناهج الفرنسية ، ثم لم تمض سنون حتى أصبح عدد هذه المدارس سبعين مدرسة ، بينها ست عشرة مدرسة كبيرة ، بلغ عدد طلابها تسعة آلاف تلميذ ؛ وكانت اللغة العربية هى لغة التعليم الأولى .

وزيادة على ذلك قد جعل محمد على باشا الأزهر موضع عنايته ، وقرب إليه علماءه ، واختار من طلبته النواة الأولى لمدرسته الطبية . ولما أرسل البعوث إلى فرنسا كان فيها شيوخ أزهريون ، ومن بينهم رفاعة بك ، ذلك العالم الذى أفاد المصريين بعد عودته بالتآليف والترجمة .

وكما أن اهتمام محمد على باشا بالجند حمله على إقامة المدارس لهم والمستشفيات ، وعلى إنشاء المعامل التى تعد العدد للجيش ، كانت الرغبة فى الإصلاح العام حافزا له على إحياء ما تعطل من المشروعات النابليونية ، وفى عدادها المطبعة والصحيفة .

وظلت مطبعة بلاق التى أنشأها محمد على باشا من كبريات المطابع فى الشرق العربى ، وأصدرت كتبا قيمة فى فنون شتى ، أكثرها ترجمات عن اللغات الأوربية .

كما أن جريدة الوقائع المصرية التى أصدرها سموه ( ١٨٢٨ م ) كانت من أوليات الصحف العربية وأمهاتها .

ولما أفضت ولاية مصر إلى ابنه إبراهيم باشا ، توقع الناس إصلاحا كبيرا ، كان سموه قد أعد العدة له إثر رحلته إلى أوربة ، ولكن الأجل عاجله قبل تحقيق العمل . ثم نكب التعليم بعده خلال ولاية عباس باشا الأول ، لأن هذا الأمير أقفل المدارس ، ولم يستبق منها إلا واحدة لتخريج ضباط البر والبحر ، وجرى مجراه سعيد باشا ؛ وما زالت المدارس معطلة

إلى ولاية إسماعيل باشا . هذا ماروى بنص المؤرخين المصريين ؛ ونحن نشك فى صحته ، وخصوصا أنه قد جاء فى تقرير مستر كليف الذى انتدبته لندن لدرس مالية مصر فى عهد الخديو إسماعيل ، مايفيد وجود ١٨٥ مدرسة بمصر سنة ١٨٦٢ م .

أما البعثات العلمية لأوربة وإن ضعف شأنها فى عهده ، فلم تلغ قاطبة ، بل إن حكومة مصر أرسلت ستا منها فى حكم عباس باشا الأول ، وثلاثا فى ولاية سعيد باشا .

وظهرت خلال هذه المدة المطبعة الأهلية القبطية ، وهى أول المطابع الخصوصية بمصر ، وكان إنشاؤها دليلا على بواكير نهضة تنبثق من صفوف الشعب . وصارت الولاية لإسماعيل باشا (١٨٦٣) ، وليس بمصر إلا أربع مدارس : ابتدائية ، وثانوية ، وحربية ، وطبية صيدلية ، وهى فى مجموعها على حالة سيئة . وكان إسماعيل باشا قد ورث عن جده مؤسس الأسرة المطامع الرامية إلى إنشاء كيان دولة مستقلة . فخف مثله إلى تعزيز كيان حكمه بالجندية ، معنيا بإنشاء المدارس العسكرية والفنية والطبية ، على أحدث الأساليب ، واهتم بنشر التعليم الشعبى ، وذلك بإنشاء كتاتيب أقامها فى كثير من النواحى ، فضلا عن دار العلوم التى أسسها سنة ١٨٧٣ . وكانت الحكومة فى عهد محمد على وإسماعيل تأخذ على عاتقها كسوة التلاميذ وإطعامهم ، وتعطيهم مرتبات لنفقاتهم الخاصة ؛ ولما عاينت الإقبال على المدارس ، واعتزمت افتتاح المدارس الخارجية ، فرضت على أوليائهم أجورا تقدر بقدر حال كل منهم .

ورأى الخديو إسماعيل إقبال بنات مصر على مدارس الإرساليات الدينية ، فسارع إلى فتح مدرسة للبنات سنة ١٨٧٣ م ، كان الإقبال عليها مشجعا له على فتح قسم للمعلمات ، وعلى فتح مدارس غيرها فى سائر الأقاليم .

وبمقتضى جغرافية فكرى ، بلغ عدد التلاميذ سنة ( ١٢٩٢ هـ = ١٨٧٥ م ) أى أواخر ولاية إسماعيل باشا : ١٤١٩٧٧ تلميذا ، والمدارس والكتاتيب : ٨١٧ مدرسة ، والمعلمين ٦٠٤٦ معلما . وهذه الأرقام توافق ماورد فى تقرير مستر كليف المشار إليه . غير أن مستر كليف يروى أن هذه الأرقام إنما كانت تقتصر على المدارس القائمة على التنظيم الأوربى الحديث .

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن المستوى العام للتعليم وقتئذ كان مرضيا فى المدارس الحربية ، وأما فى غيرها فكان دون الوسط ، ومرد ذلك إلى أن السواد الأعظم من المعلمين كان من الأزهر إبان انحطاطه . غير أن هذا المستوى أصابه شىء من التحسين من جراء إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ م ، ثم بانشاء مدرسة المعلمين والمعلمات فى مطلع ولاية توفيق باشا سنة ١٨٨١ .

هذا ، وقد أراد إسماعيل باشا وضع حد للفوضى والارتباك اللذين أصابا الأزهر فى ذلك الحين ، فأصدر ( ١٢٨٨ هـ = ١٨٧٢ م ) قانونا نظم فيه طرق نيل الشهادة العالية ، ولكن على الرغم من ذلك بقى التعليم فى الأزهر مقصورا على العلوم الدينية والعربية ، وعلى قليل من الهيئة والمواقيت .

على أن إسماعيل باشا أعار اهتمامه الكثير البعثات العلمية ، فأرسل ١٧٢ تلميذا لأوربة ، وأنشأ المكتبة الخديوية (١٨٧٠) . وفى نفس الوقت سهل للأجانب الإقامة بمصر ، وإنشاء مدارسهم التى أمدها بالمساعدات ، فضلا عن ترحيبه بأدباء سورية ، ومكافأته مشاهيرهم ، سواء منهم من هاجروا إلى مصر ، أو من تخلفوا فى بر الشام ؛ فحفل عهده بنهضة أدبية ، حملت المدارس والمطابع ألويتها ، ونطقت الصحف والمؤلفات بلسانها .

ثم أقيل الخديو إسماعيل ، وولى ولده توفيق باشا ( ١٨٧٩ م ) غير أن النهضة ظلت على ازدهارها بقوة الاستمرار ، وقد احتل الإنكليز مصر خلال ذلك على أثر الحوادث العرابية ، ومدارس مصر مابرحت على ازدياد ، وتلامذتها مازالوا على توافر ، وكان أشهرها مدرسة المعلمين والمعلمات ، ومدرسة القصر العيني . وقد أحصى اللورد دفرين ( ١٨٨٢ م ) المعاهد العلمية التي كانت قائمة حين دخول الإنكليز ، فكانت كما يلي :

١) جامع الأزهر وفيه ٨٠٠٠ طالب للعلوم الدينية وآداب اللغة العربية .

٢) المدارس الأجنبية وعددها ١٥٢ مدرسة ، وفيها ١٢,٢٤٧ تلميذا ، ويتمتع بعض هذه المدارس بمنح حكومية .

٣) المدارس الحكومية ، وهي ٥٢٧ ابتدائية، وفيها ١٣٧,٥٥٣ تلميذا ، و٢٧ ثانوية ، وفيها ٤,٦٦٤ تلميذا . فضلا عن مدرسة تجهيزية بالقاهرة ، و ١١ مدرسة للفنون والمهن ، واحدة منها للبنات .

٤) لم يتورع اللورد كرومر عن المجاهرة بأن مهمة الحكومة ليست ترقية التعليم ، ولا رفع مستوى العلم ، ولكنها تنحصر في إعداد الموظفين الذين تحتاج إليهم لإدارة شئونها .

تلك كانت سياسة الإنكليز في حقل المعارف مذ احتلوا وادي النيل ، ووراء هذه الغاية وقفوا تيار الروح العلمي الذي كان يجتاح مصر في عهدي إسماعيل وتوفيق . واستعانوا على ذلك بوسائل سلبية وإيجابية ، وبينا ذلك في الجزء الأول من كتابنا «قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور» ، وقد عمدوا إلى الأساليب التالية في سبيل تحقيق هذا المطلب :

١) تعطيل مدارس الحكومة الحربية والفنية .

٢) إهمال التعليم الابتدائي والثانوي .

٣) إبطال المجانية في التعليم .

٤) إهمال اللغة العربية .
٥) وقف البعثات العلمية لأوربة .
ومن جهة ثانية قاموا بما يلى :
١) تشجيع المدارس الأجنبية ، ولا سيما الأنكلوسكسونية .
٢) تنشيط الإرساليات الدينية .
٣) ترويج الصحف الموالية لهم ، لاستخدامها فى الدعاية .

هذا ، وربما أن الأزهر لم يسلم من هذه السياسة البريطانية فى الناحية التعليمية ، وأن الفوضى التى كانت مستحكمة فيه حملت بعض أهل الغيرة على التفكير فى طرق إصلاحه ، ومطالبة الحكومة بهذا الإصلاح . وقد استجابت لهم ، وأصدرت قانون سنة ١٨٩٦ القاضى بإضافة مواد جديدة للدراسة فى هذا المعهد . وقام على تنفيذ هذا القانون مجلس إدارة يضم طائفة من العلماء ، ثم انتشر عقد هذا المجلس بخروج الشيخ محمد عبده منه ، ثم بوفاته سنة ١٩٠٦ ، وعاد الأزهر لقديمه .

وكأن الحكومة نفضت يدها من الأزهر منذ بداية القرن العشرين ، فأصدرت سنة ١٩٠٧ قانونا يقضى بإنشاء مدرسة القضاء الشرعى . وإذا بالأزهريين يستيقظون ، وإذا بهذا الحدث يحملهم على الاجتماع والمطالبة بإصلاح معهدهم ، وإسناد الوظائف الشرعية لمتخرجيه .

وإن الحكومة التى اتخذت موقف المعارضة فى البداية ، لم تجد بدا آخر الأمر ، من مراعاة أمانى الأزهريين ، فأصدرت سنة ١٩١١ قانونا لتنظيم الأزهر ، على مثال مدرسة القضاء الشرعى ، ومدرسة دار العلوم .

ويرجع نجاح الأزهريين فى استصدار هذا القانون الذى وضع أسس الإصلاح ، إلى التطور الاجتماعى الذى أصاب وادى النيل إثر استفحال الثروة فيه ، ذلك التطور الذى كان جزءا من عناصر النهضة العالمية . فما إن قيض لمصر وزير للمعارف كفؤ سنة ١٩٠٨ ، وأعنى به سعد زغلول باشا ،

حتى صمد فى وجه السياسة البريطانية . فإذا به يعيد إلى اللغة العربية سابق مكانتها ، ويجعلها لغة التدريس فى الابتدائية والثانوية ، ويرجع للبعثات شيئا من رونقها ، ولما قفل أفرادها راجعين إلى وطنهم العزيز . أخذوا على عواتقهم أعباء النهضة . وإلى هـــذا تألفت سنة ١٩٠٩ مجالس المديريات ، وشرعت تتنافس فى نشر التعليم ، ولا سيما فى الأرياف ، زيادة على مدارس خاصة كثيرة ، قامت بها الجمعيات الخيرية وبعض الأفراد . وانتهت هذه الحركة المباركة فى تلك الحقبة، إلى إنشاء كلية كانت نواة الجامعة المصرية التى قامت سنة ١٩٢٥ .

ومع كل ذلك فإننا نقدر أن نقول : إن العهد العثمانى قد انقضى ومصر لاتزال ترزح تحت أثقال الأمية ، ومدارسها الرسمية وغير الرسمية قليلة بالنسبة للأمصار الأخرى، وعدد تلاميذها أقل . وبمقتضى إحصاء سنة ١٩١٧ كان عدد المتعلمين فيها لا يتعدى ١٣٦ فى الألف ، وعدد المتعلمات بنسبة ٢١ فى الألف فحسب .

- التطور الثقافى فى السودان :

منذ أن دخل الإسلام السودان مع العرب ، نشأت فى تلك البلاد حركة علمية مركزة فى ناحيتين : أولاها الكتاتيب التى تعنى بتلاوة القرآن وحفظه ، وثانيها حلقات المساجد التى يلقى فيها العلماء دروس الدين والأخلاق عقب الصلوات .

ولقد ظل هذا الشكل من التعليم الدينى رائجا فى السودان طول زمن آل عثمان، وفى عهد الحكم الثنائى . وحتى الآن لاتزال « خلاوى » القرآن منتشرة فى كل مكان ، ولا تفتأ حلقات الدروس تزحم المساجد . وكان مسجد أم درمان أحد تلك المعاهد التى يدرس فيها كبار العلماء منذ أيام الشيخ الجليل محمد البدوى ، الذى أقامته حكومة السودان شيخا للإسلام .

وما زال هذا المعهد مركز التعليم الدينى فى السودان ، وتتولى الحكومة الإنفاق عليه .

وكأن حكومة الاحتلال اعتبرت بما كان لهذه « الخلاوى » من الأثر البالغ فى التفاف السودانيين حول المهدى ، حينما دعاهم لمقاومة الأجانب ، فشاءت التضييق على التعليم القرآنى ، ولكنها لم تأمن غائلة هذه المحاولة، فرأت من المصلحة أن تصرف الناس عنه، بإيجاد المدارس الرسمية .

وإذ كانت سياسة الإنكليز التعليمية فى مصر إنما تقوم على إيجاد مستخدمين للدوائر الحكومية ، فهل ينتظر منهم فى السودان أن يحيدوا عن هذه السياسة ؟

لذلك عمدت حكومة السودان ـ مذ تسلمت شئون التعليم العام ـ إلى الشح بالمخصصات له فى الميزانية، حتى إن نسبتها لم تكن تتجاوز ثلاثة فى المئة ، فضلا عن أنها أخضعته لقانون يحرم على أى شخص إنشاء مدرسة دون الحصول على تصريح كتابى . ولهذه الأسباب لم يبدأ التعليم الأهلى إلا عام ١٩٢٦ .

على أن المدارس الرسمية كانت ابتدائية فقط ، وعدد المدارس الوطنية لم يكن يتجاوز تسع مدارس حتى عام ١٩١٨ . تضاف إليها كلية غوردون ، التى أنشأها الإنكليز فى الخرطوم فى سنة ١٩٠٢ ، وربطوها بجامعة لندن .

د — تطور بلاد الشام الثقافى :

لما ضرب المغول بغداد تلك الضربة القاضية ( ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م ) تحولت الحركة العلمية الأدبية فى العراق إلى مصر والشام . فاستقبلها الفاطميون ثم الأيوبيون بالرعاية ، ونشأ فى ظلالهم طبقة من العلماء والأدباء المرموقين .

ولكن ذلك الازدهار الذى شمل بلاد الشام كان عابر سبيل أسوة بمصر ، لأن عوامل كثيرة لم تلبث أن تضافرت عليه فاستأصلته ، وألقت البلاد فى الجهل والحرمان ؛ فقد دهم الصليبيون والمغول سورية ، ثم اكتسحها تيمورلنك، فأمعن فى الفتك بأهليها ، ولاسيما أهل العلم منهم. وكانت حلب حافلة بالعلماء ، فلما اكتسحها هذا الطاغية ، ذهبت على يده مكتباتها الكثيرة ، ومدارسها السلطانية والعصرونية والحلوية والشرقية والرواحية ، وكذلك وقع بدمشق . ثم صارت بلاد الشام ولاية لآل عثمان ، وما كان همهم فيها إلا جمع الأموال ، وتجنيد الرجال ، وإلى ذلك جعلوا لغتهم دون لغة القرآن ، وكانوا إذا ما أعاروا التفاتهم إلى العلم وأهله ، يحصرون هذا الالتفات حتى حين بقاعدة البلاد .

ولولا حلقات الدروس فى مساجد بلاد الشام وكنائسها، بالإضافة إلى مدارس قليلة فى أمهات المدن ، لكانت على حال من الاحتضار ؛ ولولا أن نفرا من أهلها كانوا يتحملون المشاق ، فيؤمون الأزهر بمصر ، والنجف فى العراق ـ وغيرهم يقتبسون نور المدنية من بلاد الغرب ـ لكان القضاء المبرم على كل معرفة فى هذه البلاد .

على أن مدينة حلب كانت أكثر المدائن السورية نورا فى أثناء تلك الظلمة، وزهت بطبقة من رجال العلم والأدب ، برغم ما انتابها من كوارث المغول والتتر ، ومن إهمال آل عثمان ، وقد سبقت البلاد العربية إلى الطباعة .

هذا ، ولكن عوامل كثيرة سرعان ما تضافرت على مكافحة الجهل، ونشر التمدن الحديث فى بلاد الشام قاطبة ، ولا سيما لبنان ، نستعرضها فيما يلى :

هـ — العوامل الدينية :

عاملان مهمان عملا على توثيق العلاقات بين بلاد الشام وأوربة : أولهما بيت المقدس وما حوله من البلاد المقدسة مهوى أفئدة المسيحيين ،

وثانيهما ارتباط الطوائف السورية الكاثوليكية والمارونية دينيا بروما ، . وصداقة هذه الطوائف لباريس سياسيا ، ولا سيما أهالى لبنان .

ففلسطين ما زالت كعبة الرهبان الأوربيين على اختلاف مذاهبهم ، ومحج النصارى حيث كانوا .

والطوائف الغربية وعلى رأسها الموارنة ، ما انفكوا مذ توثقت عرا الصداقة بين السلطان سليمان القانونى وفرنسوا الأول ، يرجعون لباريس عند كل مهمة .

وهذان العاملان بالإضافة إلى المطامع الدولية بالشرق الأوسط ، كانا حافزين لأوربة على إرسال البعثات التبشيرية ، وحمايتها فى بلاد السلطنة ، ولا سيما ولايتى سورية وبيروت .

واستعدادا لذلك أنشأ البابا هونوريوس الرابع عشر ، فى غرة القرن الرابع عشر ، مدرسة بباريس تعنى بتعليم اللغة العربية ؛ كما أن اليسوعيين فتحوا أواخر القرن السادس عشر مدرسة فى روما ؛ وكانت تعنى بتعليم العربية والعبرانية ، ثم أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر بإنشاء المدرسة المارونية فى عاصمة الكثلكة (١٥٨٤ م) ، وسلم إدارتها لليسوعيين .

وكانت تركية قد أمست فريسة الاضطرابات الداخلية ، والغزوات الخارجية ، فنسى لفرنسا أن تستثمر ضعفها ، وتؤكد امتيازاتها ، وأتيح لسائر الدول الحصول على مثل هذه الامتيازات ، وكان على رأسها حماية الإرساليات الدينية .

وهكذا تسنى لهذه الإرساليات أن تقدم لدولها خدمات جلى ، ليس فى صعيد نشر الدين فحسب ، وإنما فى الشئون السياسية والاقتصادية أيضا ، هى فى نفس الوقت كانت بالنسبة لبلاد الشام ، من عريش مصر إلى تخوم الأناضول ، عاملا على تلقيح جراثيم النهضة ، وذلك بالمدرسة التى انتشرت فى كل بلد وقرية . على أنها كانت حافزا أيضا لأهل البلاد على اختلاف

طوائفهم ، على إنشاء المدارس الوطنية ، خشية ارتماء أبنائهم فى أحضان مؤسسات التبشير .

و — العوامل الثقافية :

أكب الأوربيون منذ القرن الثانى عشر على المؤلفات العربية يترجمونها، ويدرسونها فى مدارسهم ، واستمر بعض كلياتهم يواظب على تدريس بعض العلوم باللغة العربية ، إلى أجيال غير بعيدة .

ولما اخترع فن الطباعة فى أواسط القرن الخامس عشر ، عنوا بطبع بعض المؤلفات العربية ، وظلوا مدة طويلة على ذلك، حتى إنه لما لجأ الأمير فخر الدين المعنى الثانى إلى إيطاليا، فى صدر القرن السابع عشر، شاهد فيها هذه المطبوعات تباع بأثمان معتدلة .

وهذه العناية بتدريس لغة القرآن وبترجمة الكتب العربية وطبعها ، استلزمت تقريبهم بعض المتعلمين من البلاد العربية ، قصد الاستعانة بهم . واللبنانيون مازالوا نقلة العلوم منذ القديم ، شأنهم فى التجارة ، وما زالوا يستهينون بالغربة والأسفار ؛ فاستقر منهم أساتذة فى أوربة ، أشهرهم إبراهيم الحقلانى (ت ١٠٣٧ = ١٦٢٧) ، وكان يدرس اللغة العربية فى « كلية فرنسا » بباريس ، وشمعون السمعانى مدرس اللغات الشرقية فى كلية بادوا منذ سنة ( ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٥ م ) . والقس مخائيل الغزيرى ترجمان ملك أسبانيا كرلوس الثالث ، والخورى أنطون عريضة معلم اللغات الشرقية فى وينّة . وكان أكثر هؤلاء من خريجى المدرسة المارونية فى روما .

هذا ، وقد رافق ازدهار النهضة الأوربية نشوء طبقة من العلماء ، إنما رغبوا فى علوم الشرق ولغاته حبا فى العلم نفسه ؛ كما أن استفحال شأن الاستعمار الأوربى رافقته عناية الدول الطامحة إلى تعليم طبقة من الموظفين لغات الشرق ، ومنهم علماء ، ومنهم سياسيون .

وهؤلاء المستشرقون من أهل الطبقتين ، خدموا العلم على وجه عام ؛ إذ نشروا ما انطوى من مدنيات الشرق ، وترجموا فيما ترجموا عن العربية : الطبيعيات والفلسفة والرياضيات ، وخدموا العرب على وجه خاص ، لأنهم جمعوا بعض كنوزهم العلمية ، ثم عرفوا كيف يعرضونها .

وكان هؤلاء الأجانب المستشرقون ، وأولئك المواطنون المستغربون ، ألف وصل بين التمدن الحديث وبين بلاد الشام المتوثبة ، وكان لهذه الصلة مفعولها الكبير فى نهضتها الثقافية .

ز — العوامل السياسية :

إن الحوادث الجسام التى شغلت أوربة أواخر القرن الثامن عشر ، كان لها أثر أى أثر فى يقظة هذا الشرق العربى ؛ فلقد شبت الثورة الفرنسية ، ثم جاء نابليون بونابرت إلى مصر ، واحتلها قصد أن يجعلها مركزا استراتيجيا للحملة على الهند ، وتعداها إلى سورية . ولكنه وإن عاد مدحورا عنها قد ترك فى الميدان دروسا مفيدة للسلطان سليم الثالث ( ١٧٨٩ — ١٨٠٨ ) ، من حيث ضرورة الأخذ بمبادئ الإصلاح الأوربى ، ولا سيما الفن الحربى الحديث .

ولكن طغمة المحافظين فى تركية بالإضافة إلى الإنكشارية المستبدة ، حالوا بين السلطان وأمانيه ، وخلعوه من أجلها . وكان السلطان محمود الثانى ( ١٨٠٨ — ١٨٣٩ ) كثير الاتصال بالسلطان سليم بعد خلعه ، وقبل أن يتبوأ محمود العرش ، ثأر له بالقضاء على الإنكشارية ، وعنى بتحقيق أمانيه فى الإصلاحات المدنية والعسكرية . وكان فى جملة ذلك إنشاؤه المدارس الابتدائية والثانوية ، فضلا عن المعهد الطبى ، ومباشرته إرسال أولى بعثات الطلبة لأوربة . ولما كان الناس على دين ملوكهم ، بدرت فى ذلك الحين من بعض ولاة سورية بوادر عطف على التجديد والأدب ، كانت

تظهر كوميض برق خلال الرماد الأسود . ونخص بالذكر منهم سليمان باشا بعكا ، ويوسف باشا كنج بدمشق ، والأمير بشيرا الشهابي بلبنان .

غير أن هذا النشاط الأدبي لم يلبث أن امحى مدة من الزمن ، تحت سنابك قوافل السياسة ؛ فلقد استطاع محمد علي باشا والي مصر أن يكتسح بلاد الشام ، ويتعداها إلى الأناضول ، قاصدا عاصمة السلطان .

وعملت الدول على رده إلى مصر ، وبقي استقلال تركية محفوظا كما كان . وهو حادث تاريخي يبدو كأنه انتهى ؛ والواقع أن هذه الغزوة تركت آثارا محسوسة في مستقبل هذه السلطنة ، وخصوصا أن إنقاذ الدول لتركية ، جعل الباب العالي واطئا إزاء الدوننج ستريت والكي دورسيه وغيرهما ، وجعله يتلقى النصائح منهما بقبول وامتثال . وبكلمة أخرى ، كان لهذا الحادث ذيول ، بفتحه باب « المسألة الشرقية » . وكان له رد فعل في الناحية الثقافية ، حقا أن النشاط الأدبي أصابه كثير من الذبول في سورية خلال الحملة المصرية ، غير أن العاقبة كانت خيرا ، بإقحام تركية العهد الإصلاحي .

لقد قام السلطان عبد المجيد ( ١٨٣٩ — ١٨٦١ ) من ثم بالإصلاحات المطلوبة ، وفي جملتها إنشاء المدارس الرشدية والإعدادية . ولما خ السلطان عبد العزيز ( ١٨٦١ — ١٨٧٦ ) وكان عمرانيا ، كثير الشبه بمعاصره الخديو إسماعيل باشا بمصر ، جرى وإياه في سبيل واحد ، من حيث تنشيط النهضة ، والبذل في مكافأة العاملين والمؤلفين . وكم لهما من أياد بيضاء على بطرس البستاني ، وأحمد فارس الشدياق ، ومارون النقاش ، وغيرهم من مؤسسي النهضة السورية ! وفي مفتتح ولاية السلطان عبد العزيز فتحت حكومة حلب المدرسة المنصورية ( ١٢٧٨ هـ — ١٨٦١ م ) ، وهي أولى مدارس الحكومة في بلاد الشام .

ولما صار عرش السلطنة لعبد الحميد الثاني ( ١٨٧٦ — ١٩٠٩ ) ، واقتضت سياسته تقريب العرب ، أذن لمدحت باشا والي دمشق في إنشاء

المدارس . خف الدمشقيون بإيعازه إلى تأليف الجمعية الخيرية ( ١٨٧٨ ) ، وعهدوا إليها بإنشاء المدارس ، فبلغ عددها وقتئذ ثمانى مدارس ابتدائية للذكور والإناث ، فضلا عن دار للصنائع ، واعتنت هذه الجمعية أيضا بتأسيس المكتبة الظاهرية ، ثم لم يطل بقاء الجمعية بعد نقل مدحت باشا من سورية . أما فى بيروت التى كانت وقتئذ متصرفية تابعة لولاية سورية فإن حكومتها تركت هذا الميدان للمدارس الأجنبية ، تتعهد على هواها تربية الناشئة التربية التى تريدها . ولم تنشئ الحكومة المدرسة الإعدادية فيها إلا سنة ١٨٨٥ م ، بالإضافة إلى الرشدية والعسكرية ، ثم صحت نية الحكومة من بعد على إنشاء كلية للطب بدمشق ، ففتحتها سنة ١٩٠٣ ، وجعلتها مشتملة على فرع للصيدلة ، ثم شفعتها بكلية للحقوق فى بيروت سنة ١٩١٢ ، وكان التدريس فى هاتين الكليتين باللغة التركية .

على أن قيام هذه المدارس لم يكن فى الواقع يبرر تقصير السلطنة فى صدد نشر المعارف ، ذلك لأن جباية سورية كانت على رواية الأب لامنس فى كتابه Lamem, La Syrie تبلغ أوائل القرن العشرين نحوا من تسعين مليون فرنك ، لم يكن يخصص للمعارف منها سوى إحدى وسبعين ألف ليرة تركية .

وإزاء هذا الموقف الذى وقفته تركية فى بلاد الشام وغيرها من العلم والتعليم ، كانت كل دولة من الدول الأوربيه تعمل على نشر نفوذها فى المنطقة التى تطمع بها ، آملة أن تكون حصتها أرجح من سواها فى إرث الرجل المريض ، وهل ثمة أفضل من المدارس لإدراك هذه الغاية ؟

لذلك رأينا الدول الأوربية تتسابق فى ميدان المدارس ، وفى إنشائها هنا وهناك فى بلاد الشام ، ولا سيما ولاية بيروت وجبل لبنان ؛ وهى فى هذا التنافس تتسابق إلى البذل أيضا . وعلى رواية كتاب Puissances Trancassie P58-88 خصصت فرنسا سنة ١٨٩٥ لمدارسها فى الشرق

الأدنى مبلغ ٧٠٠ ألف فرنك ، أما روسيا فوضعت فى ميزانيتها لهذه الغاية مليون فرنك ، وإيطاليا مليونا وأربعمائة ألف فرنك . ثم لم تقف الدول عند هذا الحد من الكرم ، بل كانت تسترسل فى جودها على مرّ الأيام .

على أن بلاد الشام وإن نكبت سياسيا واجتماعيا من جراء التدخل الأجنبى بين أهليها ، جنت منه فوائد جليلة فى الناحية الثقافية ، كانت قوام نهضتها الحديثة .

ح — العوامل الاقتصادية :

لما أصابت الصناعة تقدما محسوسا فى أوربة ، وضاق نطاق هذه القارة عن استيعابه ، واحتاجت دولها إلى المواد الأغفال لمصنوعاتها ، مدّت أبصارها إلى آسيا وإفريقية ، قصد أن تشترى منها رخيصا وتبيعها غاليا .

وكانت أوربة تقدر الفوائد المرجوة من جراء معرفة رجالها الموظفين فى المستعمرات وغيرها ، ألسنة أهل البلاد ، فوجهت عنايتها لتدريس اللغات الشرقية الحية ، وأنشأت فرنسا منذ سنة ١٧٩٥ مدرسة لتعليم هذه اللغات بباريس ، وجرى مجراها غيرها من الدول الطامحة .

على أن بلاد الشام وإن ظلت فى منجى من الاستعمار الأوربى السياسى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، ما استطاعت مع ذلك البقاء مستقلة عن نفوذ أوربة وأميركا الاقتصادى .

ومع ذلك يمكن القول بأن السوريين سواء كانوا فى الساحل أو الداخل ، أظهروا مناعة كافية فى الناحية الاقتصادية ضد الجارف الأجنبى ، فلم يفسحوا له المجال للقبض على زمام التجارة فى أسواقهم ، بل قامت منهم بيوتات تجارية وتجار هيمنوا على الأسواق ، وكانوا فضلا عن ذلك ألف الوصل بين الغرب والشرق القريب ؛ أما وإن مزاولة التجارة

وسائر الشئون الاقتصادية أصبحت تتطلب معرفة فى اللغات والجغرافية وأصول التجارة وغيرها ؛ فقد حصل إقبال شديد على المدارس والكليات الأجنبية ، كان نتيجة لضرورة اقتصادية ، وخصوصا فى بيروت ، المدينة التى صارت فى ذلك الوقت مرفأ للبلاد العربية المجاورة ، ولبعض البلاد التركية . وكان هذا التواصل التجارى وسيلة للاختلاط بين أهل البلاد وبين العالم الغربى ، بوساطة الذاهبين إلى أوربة وأمريكا والقادمين منهما ، وما أشد مايفعل مثل هذا الاختلاط فى ميدان التقدم !

وإلى هذا ، إن قيام الشركات الأجنبية ذات الامتياز فى بلاد الشام كشركات الخطوط الحديدية والمرافئ والكهربا والماء والغاز والترام والبنوك ، مثلما أفضى إلى نزول عدد من الأخصائيين فى بلاد الشام ، كان حافزا آخر للأهلين على دخول المدارس ، أملا فى الاستخدام فى هذه الشركات وغيرها .

ثم لما أخذ أهل البلاد بأسباب النهضة الصناعية والزراعية ، معتمدين فى ذلك على الأساليب الميكانيكية الحديثة ، واحتاجوا من ثم إلى طبقة من الأخصائيين ، تسابقوا إلى إيفاد أولادهم إلى جامعات أوربة وأمريكا ، يقضون سنين فيها للتخصص الفنى ، حتى إذا قفلوا عائدين لوطنهم ، كانوا يعودون مشبعين بروح جديد يبثونه فى البلاد مضافا إلى علومهم .

وهناك عامل آخر كانت له أهميته فى نهضة بلاد الشام ، وخصوصا لبنان ، وأعنى به عامل الهجرة إلى الأمريكتين ؛ فالهجرة لم تكسب البلاد الأموال فقط ، تلك الأموال التى رفعت الصروح الجميلة ، والدور الكثيرة ، فى سورية ولبنان ، بل كانت أيضا فى جملة الأسباب التى فتحت كوة من النور فى كياننا الصغير ، بالتواصل مع البلاد الراقية ، وبما كان للعائدين إلينا من تأثير شديد فى بيئاتهم الريفية والقروية .

وهذه العوامل مجتمعة تضافرت على خلق بعث ثقافى فى ولايتى سورية وبيروت ، وفى متصرفية لبنان ، صاحبه انقلاب اجتماعى ، جعل هذه البلاد فى المرتبة المرموقة حول البحر المتوسط . وكانت هذه العوامل بمثابة مقدمات لنتائج ظهرت على مراحل ، نستعرضها فيما يلى :

ط — عهد رجال الدين لغاية القرن الثامن عشر :

كان العلم والأدب ببلاد الشام فى صدر العهد العثمانى ، لا يتعدى نطاق العلوم الدينية والأدبية . وهو إلى ذلك كان محصورا فى رجال الدين . ثم كان لاتصال الأكليروس المسيحى بأوربة أثر بالغ فى النهضة السورية ؛ ذلك أنه عدا أولئك الذين انتشروا فى باريس وفلورنسة وفينا وبادوا وغيرها ، من خريجى المدرسة المارونية فى روما وسواهم ، أخرجت هذه المدرسة فحولا من القسس عادوا إلى الوطن ، وتولوا فيه أكبر الخدم الكهنوتية ، فكان منهم البطاركة والمطارنة منذ القرن السادس عشر .

وقد استخدم هؤلاء نفوذهم الروحى لخدمة أبناء ملتهم فى الناحية الثقافية ، فكانت مدرسة حوقة فى جبل لبنان التى أنشئت سنة ١٠٤٢ هـ = ١٦٣٢ م ، باكورة هذه الخدمات ، ثم تلتها مدرسة أخرى بحلب سنة ( ١٠٧٣ هـ = ١٦٦٢ م ) فمدرسة عين ورقة بلبنان ، ( ١٢٠٤ = ١٧٨٩ م ) وعشرات غيرها فيما بعد ، خصوصا حينما حولوا بعض الأديار إلى مدارس . وهم إلى ذلك قد عنوا بإنشاء المطابع ؛ وكانت أولاها تلك التى أقاموها بحلب ، فى مطلع القرن الثامن عشر . وأما الثانية فهى مطبعة عبد الله زاخر ، فى دير مار يوحنا الطبشة بلبنان ، وهو راهب حلبى ربما نقل فكرة هذه المطبعة من حلب لطبع الكتب الدينية .

على أن الإقبال على إنشاء المدارس فى القرن الثامن عشر ، لم يقتصر على الطائفة المارونية فى لبنان ، بل شمل غيرها من الطوائف المسيحية ،

ولعل الأرمن كانوا فى الطليعة ، لاختلاطهم بالغرب عن طريق الآستانة وغيرها . فقد أنشأ غريغوريوس الأول راعى الأرمن الكاثوليك مدرسة بزمار سنة ( ١٢٠٣ هـ = ١٧٨٨ م ) ، كما وضع بطريرك السريان الكاثوليك مخائيل جروه أسس مدرسة الشرفة ، وأنشأ بطريرك الكاثوليك أغابيوس مطر مدرسة عين تراز ( ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ م ) ، وكلها فى جبل لبنان .

وتألفت خلال ذلك الرهبنات الوطنية عند الموارنة والروم الملكيين ، فشاركت فى نشر المعارف ، وفى ترجمة بعض التآليف اللاتينية .

على أن تلك المدارس والمطابع وإن كان هدفها دينيا ، لأنها إنما وضعت لتخريج الأكليروس ولنشر المؤلفات المسيحية ، أعطت مع ذلك نتائج طيبة فى خدمة النهضة العامة ، ولاسيما أن كثيرين من خريجيها لم يتكرسوا من بعد فى الطقوس الأكليريكية ، وإنما راحوا يستثمرون أدبهم فى خدمة دواوين الأمراء والحكام . نذكر منهم نقولا الترك ( ت ١٨٢٨ ) ، ومخائيل البحرى ( ت ١٧٩٩ ) ، وإلياس أده ( ت ١٨٢٨ ) ، وبطرس كرامة الحمصى ( ت ١٨٥١ ) ، وعبود البحرى .

وكان يعاصر هؤلاء فى القرن الثامن عشر أدباء من المسلمين ، وعلماء كثيرون ، نذكر منهم المشائخ عبد الغنى النابلسى ، وعثمان ظاهر العمر ، وأحمد البربير ( ت ١٨١١ ) ، وأحمد عمر دبوس ، وعمر اليافى ( ١٨١٨ ) ، وإبراهيم الحر العاملى ، والأمير حيدر أحمد الشهابى ( ت ١٨٣٤ ) ، والشيخ أمين الجندى ( ت ١٨٤١ ) ، وعبد اللطيف فتح الله . وقد تولى الإفتاء فى بيروت . قال عنه الأب شيخو : « وكان شاعرا ، إلا أن شعره مفقود » . وقد حملنى قوله هذا على الإشارة هنا إلى وجود تاريخ نظمه المفتى المشار إليه ، وكتبه بخط يده ، مهنئا به جدى الحاج مصطفى بيهم ، بمناسبة إرخاء لحيته سنة ١٢٥٢ هـ الموافقة سنة ١٨٣٦ م ، قال :

تبدى عذار الفتى مصطفى  فأحسن به من عذار نفيس

تحلت به وجنتاه كمالا فأصبح فيـــه ابتهاج النفوس
وللمسك وهو الزكى شذاه وأرخ : « حكى خمار العروس »

وهذا التاريخ لايزال محفوظا فى متحفى المتواضع .

هذا ، وقد كان هذا التفاعل بين بلاد الشام وبين الغرب برجال الأكليروس ، عنصرا فعالا فى جملة العناصر التى خلقت النهضة الفكرية والأدبية فى ساحل هذه البلاد وداخلها .

ى — الإرساليات الأجنبية وانتشار الثقافة بين الشعب :

إن الخمس والعشرين سنة التى أعقبت انسحاب جيوش محمد على باشا والى مصر من بلاد الشام ، كانت بالنسبة للآداب العربية من خير الأزمان حفولا بعناصر النهضة ، ولا سيما فى ناحيتين :

أولاهما : تسابق الدول الأجنبية فى ميدان إيفاد البعوث العلمية إلى بلاد الشام ، وإقامة المطابع والمدارس .

ثانيهما : بروز نتائج المدارس الوطنية ، واهتمام الناس بها .

ويرجع إقبال الأوربيين على إرسال هذه البعثات ، وعلى تنشيط رعاياهم للإقامة فى الأمبراطورية العثمانية ، إلى ثلاثة أسباب :

١) اطمئنانهم إلى تركية مذ أصبح زمامها بأيديهم ، بعد إنقاذهم إياها من خطر الاكتساح المصرى .

٢) تنافسهم على استثمارها اقتصاديا .

٣) تأهب كل منهم للحصول على أكبر حصة من إرث « الرجل المريض » ، على تعبير قيصر روسيا .

ولما كان احتلال القلوب من شأنه أن يسهل فتح المعاقل ، ساقت كل دولة من هذه الدول حملة من البعثات الدينية إلى البلاد العثمانية ، وكان فى طليعتها إلى بلاد الشام ، المرسلون من الكاثوليك والأنكلو سكسون . ثم تلتهم

إرساليات أخرى بأسماء مختلفة ، رجال ونساء ، وانتشروا جميعهم فى المدن والقرى ، ولا سيما فى لبنان وفلسطين .

وكأن الإرساليات اللاتينية كانت تعتبر ولاية بيروت ولبنان منطقة نفوذ لدولها ، فكبر عليها ما أظهرته الإرساليات الأمريكية من نشاط ، فإذا بها تخف إلى منافستها فى نشر المدارس، ورفع درجات بعضها ، وإقامة المطابع، وإصدار الصحف ، متخذة بيروت نقطة انطلاق لجهودها ؛ فلما نقل المرسلون الأمريكيون مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٤٦ ، سارع الآباء الفرنسيون إلى إقامة مطبعتهم الكاثوليكية بعد سنتين من ذلك . ولما افتتح الأمريكيون ببيروت سنة ١٨٦٦ الكلية الإنجيلية، وكانت مدرسة فى قرية عبية بلبنان ، بادر اليسوعيون لنقل مدرستهم إليها من قرية غزير ، وذلك فى سنة ١٨٧٤ . ثم عكف كل من اللاتينيين والإنكلوسكون ، على ترقية معاهده العلمية ، حتى صار لها فيما بعد جامعتان ، وما أشد ما كانت تستفيد البلاد من هذا التنافس !

وكانت سائر الإرساليات البروستانتية والكاثوليكية تجرى أيضا على مثل هذه المنافسة ، وانتهى بها الأمر إلى التسابق أيضا فى ميدان إنشاء المدارس النسائية؛ فقد أنشأ الأمريكيون سنة ١٨٤١ ، بمساعى مسترهاسكنس مدرسة للبنات ببيروت ذات قسم داخلى ، وإذا باللاتينيين يتعقبونهم ، فأنشأت أخوية ابنة الإحسان fill de la charite' سنة ١٨٤٣ مدرسة مثلها فى البلدة نفسها ، كما فتحت فيها راهبات القديس يوسف (١٢٦٥ — ١٨٤٨) مدرستين للبنات أيضا ، وهكذا دواليك ، حتى كاد عدد مدارس الإرساليات للبنات يضاهى عدد مدارس الذكور .

وكان من محاسن هذا التنافس ، خروج العلم والأدب فى بلاد الشام من نطاق البيئات الدينية ، إلى صفوف الشعب ، وأصبح يشمل المرأة مربية الجيل الجديد ، كما يشمل الرجل . وكان فى الطليعة خريجو المدارس الوطنية

الذين استعانت بهم الإرساليات فى التدريس والتعليم . ومنهم بطرس البستانى ( ت ١٨٨٣ ) وأحمد فارس الشدياق ( ت ١٨٨٧ ) تلميذا مدرسة عين ورقة . وأخذ منذ ذلك الشيخ ناصيف اليازجى يحتل مكانته الأدبية ( ت ٨٧١ ) .

وكان من محاسن هذا التطور ، أن نشط المسلمون أيضا إلى الأخذ بالآداب الحديثة ، والرغبة فيها رغبة تشبه أن تكون شعبية . فاشتهر منهم فى الساحل : الأمير محمد أمين أرسلان ، مؤلف كتاب « أصول التاريخ » ( ت ١٨٦٨ ) ، وهو أول من ألف فى هذا الموضوع بين العرب فى العهد الحديث ، «ومصباح البربير (ت ١٨٥٥) ، والسيد عمر الأنسى (ت ١٨٧٦) ، والشيخ يوسف الأسير ، تلميذ المدرسة المرادية بدمشق ، وأستاذ المدارس الناشئة ببيروت ( ت ١٨٨٩ ) ، والشيخ إبراهيم الأحدب ( ت ١٨٩٠ ) .

وأما فى الداخل فكانت دمشق وحلب حافلتين بالعلماء ، نذكر منهم الشيخ عبد الله الحلبى ، ومكسيموس مظلوم ( ت ١٨٥٥ ) ، ومخائيل مشاقة ( ت ١٨٨٨ ) ، وفرنسيس مراش ( ت ١٨٧٣ ) ، ورزق الله حسون ( ت ١٨٨٠ ) ، وهو أول من أنشأ صحيفة عربية بالآستانة ، ومحمد حسين الحلبى العطار ( ت ١٨٧٧ ) ، وهو من علماء الرياضيات ، فضلا عن بعض المغتربين ، كأديب إسحاق الدمشقى ( ت ١٨٨٥ ) ، وجبرائيل دلال الحلبى ( ت ١٨٩٩ ) .

على أن التنافس بين المرسلين الأجانب كان مع ذلك مثيرا لنشاط أهل البلاد ، ولتهافتهم على ممارسة الحرفة الثقافية ؛ فإذا بمطبعة القديس جاورجيوس ببيروت ، التى كانت توقفت عن العمل ، تعود إليه سنة ١٨٤٨ م ؛ كما أنشأ بطريرك الروم فى القدس مطبعة القبر المقدس ، وهكذا دواليك ، فكانت نهضة شعبية ، مشى فى طليعتها خريجو المدارس على اختلاف ألوانها .

ك — عهد الصحف والجمعيات والمطابع :

كثيرا ماتكون عقبى الشر خيرا ؛ ومن هذا القبيل ما كان لفتنة ١٨٦٠ الطائفية الممقوتة من الفوائد لبيروت ، ثم للنهضة فيها : فقد عملت هذه الفتنة على تعمير هذه المدينة بمن لجأ إليها من ولاية سورية وجبل لبنان ، واستوطنوها ، وجعلوها مركز انطلاق لجهودهم الجبارة .

يضاف إلى ذلك أن تمتع جبل لبنان إثر هذه الفتنة باستقلاله الإدارى ، تحت إشراف دولى ، جعله وجعل بيروت موردا عذبا للأجانب ، من جراء اطمئنانهم على مصالحهم ، فكان تنافسهم فى ميادين التجارة هنا ، لايقل عن تنافسهم فى صعيد السياسة والثقافة ، ولكنهم وجدوا فى الميدان تجارا يبذونهم اقتدارا فى الناحية الثقافية ، وأعنى بهم أهل البلاد ، فكان تسابق بين الجميع ، أفضى إلى الثروة والعمران . كانت ثم نهضة ثقافية اجتماعية ، هى وليدة إرادة وطموح ، غذاها المال والعرفان . أما مظاهر هذه النهضة فكانت تبدو فى ظاهر الأمر فى النواحى التالية :

١) ظهور الصحف وارتقاؤها .
٢) ازدياد المدارس على اختلاف نزعاتها وتنافسها .
٣) تأليف الجمعيات .
٤) كثرة المطابع والمؤلفات .
٥) وفرة عدد المتعلمين والمتعلمات .

هذا ؛ وكان أول الصحف العربية هو ماصدر منها فى مصر والآستانة . وأما فى بلاد الشام فكانت جريدة حديقة الأخبار ، التى صدرت ببيروت سنة ١٨٥٨ ، هى باكورة الصحف فيها .

وكأن الباب العالى شعر بعد فتنة ١٨٦٠ باستفحال الدعايات الأجنبية ، فأوعز إلى الولاة بضرورة نشر الصحف الحكومية ، فأصدر والى دمشق

جريدة « سورية » ( ١٨٦٥ ) ، وأصدر والى حلب جريدة « الفرات » ( ١٨٦٨ ) ، وتلتها جريدة « الشهباء » ( ١٨٧٧ ) . كما أن متصرف لبنان أصدر جريدة لبنان ( ١٨٦٧ ) ، ثم أنشأ عزت « باشا » العابد ، وكان وقتئذ رئيس قلم المخابرات بدمشق جريدة « دمشق » ( ١٨٧٨ ) وذلك بإيعاز من والى الولاية جودت باشا .

وعلى رغم أن الحكومة كانت تضيق على حرية الصحف ، ورغم هجرة كثيرين من أدباء البلاد ـ ولا سيما اللبنانيين منهم ـ إلى مصر ، حيث قاموا بنهضة صحفية ممتازة ، وإلى غيرها ، رأت بلادنا سيلا من الصحف لاينضب معينه ، وهكذا شرعت جهود المعلم بطرس البستانى وولده سليم تظهر للعيان ، فى صعيد الأدب والصحافة ، فأنشأ مجلة الجنان ، وجريدة الجنة سنة ١٨٧٠ اللتين تركتا لهما أطيب الأثر .

وأما المدارس فقد أشرنا إليها فى الكلام على الإرساليات الدينية ، ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى أن باكورة المدارس الوطنية فى بيروت ، كانت « المدرسة الوطنية » التى أنشأها المعلم بطرس البستانى المشار إليه . ثم خلفتها مدارس كثيرة ، لاعيب فيها إلا أنها كانت ذات صبغات طائفية ، خلافا للمدرسة الوطنية المذكورة . ولا بد لنا أيضا من الإشارة إلى كليات الآستانة العالية ، وما كان لها من الأثر فى نشر المعارف بولاية سورية .

فتحت هذه المدارس أبوابها لأبناء العرب ، فشرعوا يؤمونها ، ولا سيما طلاب الوظائف فى الدولة ، وكلهم تقريبا من أبناء الداخل ، وأما أهل الساحل فكان لهم فى الاتجار المثمر ، مايشغلهم عن التفكير فى الوظائف ؛ فانصرفوا إلى المعاهد الوطنية والأجنبية الكثيرة فى مناطقهم ، وخصوصا لعنايتها باللغات الأجنبية ، التى يحتاجون إليها فى أعمالهم التجارية .

هذا ؛ وكان من نتيجة وفرة المتعلمين والمتعلمات فى بيروت ، بروز اتجاهات عامة بين الشعب نحو المشاركة فى أسباب النهضة ، وميل الطبقة المثقفة للعمل

متكتلة فى هذه السبيل ، فأنشئت من جراء ذلك الجمعيات ، وكانت « الجمعية السورية » أولاها ، أسسها بعض المرسلين مع فريق من الوجهاء المثقفين سنة ١٨٤٧ م . وقد اهتمت بنشر الثقافة ، ولكنها لم تعش طويلا . ثم عادت للظهور ثانية سنة ١٨٦٨ م ، وبدلت اسمها سنة ١٨٨٠ م ، فجعلته « المجمع العلمى الشرقى » .

وخلال ذلك استقل أهل البلاد عن الأجانب المواطنين فى إنشاء الجمعيات الوطنية الصرفة ، فكانت أولاها « الجمعية العلمية السورية » سنة ١٨٦٨ م ، ثم تلاها كثير من الجمعيات ، وكانت غاياتها على الأكثر خيرية وطائفية .

ولم تتقاعس السيدات عن تأليف الجمعيات أيضا . بدأ بذلك الأجنبيات ، فأنشأ الراهبات سنة ١٨٥٣ م جمعيتين ، غايتهما تهذيب الفتيات ، وهما جمعية المربيات فى بكفيا ، وجمعية قلب يسوع فى معلقة زحلة ، ثم تعددت الجمعيات النسائية .

وأما المطابع فقد أخذت فى الانتشار فى دمشق وحلب ، فضلا عن بيروت والقدس ، وأصدرت مجموعة طيبة من الكتب ، لأدباء أصبحوا يمتازون بصحة الإنشاء والترجمة ؛ كما طبعت بعض المختارات القديمة . وقد أصبح أدباء العصر وقتئذ على كثرة فى العدد ، حتى لا يتسع المقام لذكرهم . وحسبنا الإشارة بالإضافة إلى الذين نوهنا بهم من قبل وهم الحاج حسين بيهم ، من بيروت ( ت ١٨٧٥ ) ومحمود بن خليل العظم ، من دمشق ، ومحمد سعيد دجانى ، من القدس .

وأما الأديبات فقد حفل بهن الزمن ، وكان أكثرهن من البيوتات المعروفة بالأدب ، وأشهرهن مريانا مراش ، ووردة الترك ، ووردة اليازجى ، وفاطمة ابنة الأمير أسعد الخليل .

على أن الكتابة فى ذلك الوقت كانت على صحتها ، إنما تتوخى العناية بالألفاظ ، والانسجام فى العبارات ، عناية تفوق الاهتمام بالمعانى .

ل — تباشير النهضة وبواكيرها :

مدارس وجمعيات ومطابع ومكتبات ومؤلفات انتشرت فى أنحاء البلاد ، ولا سيما لبنان وبيروت خاصة ، فنقلتها من حال إلى حال ، حتى كادت بلاد الشام ، ساحلها وداخلها ، تبدو غريبة عن الماضى القريب .

غير أن هذه النهضة الوثابة ، وإن ظلت مثابرة على تقدمها سنة فسنة من جراء وفرة المدارس الأجنبية ، التى كانت تتمتع وحدها بالحرية ، منيت إبان عهد السلطان عبد الحميد بتضييق شديد ، ومراقبة مؤذية ، أديا إلى تضاؤل المدارس الوطنية ، وأفضيا إلى حجب الصحف وحل الجمعيات .

والتى كانت تستطيع أن تعيش من الصحف ، هى التى كانت تخدم الدولة ، وتتجنب البحث فى السياسة ، فلم يجد بعض المتعلمين بدا من الهجرة ، إما إلى أمريكا وإما إلى مصر ، ولجأ بعضهم إلى أوربة .

والذين أقاموا فى مصر وجدوا هناك نهضة كانت تترعرع من عهد محمد على باشا ، وتزدهر إبان ولاية إسماعيل باشا ، فشاركوا فى تأييدها ، كما أن بعضهم التحقوا بوظائف الحكومة ، فبلغوا أسمى المراتب ، وخدموا الصحافة ، فكانوا أركانها ، وفى طليعة هؤلاء الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر ، منشئا المقطم والمقتطف ، وسليم تقلا باشا منشىء الأهرام ، والمؤرخ جرجى زيدان منشىء الهلال ، والسيد رشيد رضا صاحب المنار ؛ هذا فضلا عن أدباء آخرين ، أرهفوا أقلامهم لخدمة العلم والأدب والحرية ، نذكر منهم عبد الرحمن الكواكبى ، وأديب إسحاق ، وشبلى شميل ، ونجيب حداد ، وفرح أنطون ، ورفيق العظم ، ولبيبة هاشم .

وأما المتخلفون فى بلاد الشام من أهل العلم والأدب ، فكانوا يصطدمون برقابة على كل منثور ومنظوم ، وعلى كل ما يتلى فى الاجتماعات ؛ ولما كان لا يسمح بإلقاء خطبة إلا بعد مايوافق عليها قلم الرقابة ، صارت الخطب العامة فى الغالب لاتتعدى الموضوعات المبتذلة ؛ على أن بعضهم أخذوا يبثون شعورهم وشكواهم فى صحف مصر ومجلاتها ، فأفضى ذلك إلى منع تلك الصحف والمجلات من دخول السلطنة العثمانية .

وليس بوسعنا أن نحصى هنا عدد مشاهير العلماء والأدباء المتخلفين فى بلاد الشام ، لكثرة عددهم ، فنقتصر على التنويه بالشيخ إبراهيم اليازجى ، وسليمان وعبد الله البستانى ، وجبر ضومط ، وإبراهيم الحورانى ، ومصباح رمضان ، والأمير شكيب أرسلان ، وحسن بيهم فى بيروت ، والشيخ طاهر الجزائرى ، ومحمد سليم القصاب بدمشق .

على أن ذلك التضييق على حرية الفكر فى العهد الحميدى ، لم يعد بوسعه كبح جماح النهضة فى ولاية بيروت ، ومتصرفية لبنان الممتازة ، وذلك لوفرة المدارس فيهما والكليات الأجنبية ، التى كانت خارج نطاق المراقبة التركية ، فضلا عن تأثير الاختلاط المستمر بالعالم الناهض .

فلما أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ كان ببيروت بضع وخمسون مدرسة كبيرة ، بينها عشر للبنات ، بالإضافة إلى ست كليات ، وذلك عدا المدارس الصغرى . وكان عدد الجرائد اليومية سبعا ، والأسبوعية عشرا ، وعدد المجلات أربعا ، والمطابع عشرا ، وفوق ذلك سبع عشرة مكتبة ، وثلاث عشرة جمعية خيرية ، وست جمعيات علمية ، وذلك بحسب إحصاء دليل بيروت . ثم ما إن أطلق عقال الحرية إثر إعلان الدستور ، حتى زاد عدد المدارس والصحف والمطابع والجمعيات والأحزاب ، وتوالى صدور التآليف إلى حد بعيد .

وأما فى ولاية سورية ، حيث كان النشاط الأجنبى ضئيلا ، فقد كانت عناية الحكومة بالتعليم محدودة ، وكانت الدراسة لاتزال تدور حول محور العلوم الآلية واللسانية والدينية ، ماعدا طبقة من بعض أعيان المسلمين ، زاولوا الوظائف ، فكانوا يتخرجون من مدارس الآستانة العالية ، فينشئون وكأنهم ليسوا من صميم الشعب ، يضاف إليهم بعض أبناء الاسر من مسلمين ومسيحيين ، تخرجوا فى المدارس بلبنان ، ومنهم جبرائيل دلال الحلبى (ت ١٨٩٩) ، وعزت باشا العابد ، ومصطفى باشا العابد (ت ١٩٢٥) ، فقد تخرجوا فى يسوعية عنطورا ؛ ورزق الله حسون الحلبى (ت ١٨٨٠) ، تفقه فى دير بزمار الأرمنى . وبينهم على هذا الحال إذا بنفر من المصلحين يتقدمهم الشيخ طاهر الجزائرى (ت ١٩٢٠) ينهضون لخدمة نشر العلم ، فسعوا لإنشاء المدارس الابتدائية والحكومية ، للذكور وللإناث ، واشترك الشيخ طاهر فى تأسيس ثانوية دمشق ، وجدد فى هذه المدينة دار الكتب الظاهرية ، ثم دار الكتب الخالدية بالقدس ، وألف الكتب المدرسية .

وكان إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ بمثابة نقطة انطلاق لنشاط عام ، أدى فى الساحل والداخل إلى إقبال على المعارف لاعهد لليهود به ، إقبال صاحب الوعى القومى حتى آخر عهد العثمانيين ، واستمد منه القوة ، ثم استمر هذا النشاط الأدبى يتمشى جنبا إلى جنب مع الجهاد للاستقلال ، خلال الانتداب الفرنسى ، مندفعا إلى الأمام بحيوية جبارة ، انبثقت عن الاستقلال القصير ، الذى تمتعت به سورية فى عهد الملك فيصل الأول .

هذا ، ولما أعلن الدستور العثمانى ، صدرت فى سورية الصحف السياسية ، والمجلات العلمية ، وبدئ بإيفاد بعوث الطلبة إلى أوربة ، وأنشئت فى الحواضر الكبرى مدارس ثانوية حكومية ، تعلم العلوم بالعربية ، إلى جانب المدارس الثانوية ، التى استمرت تعلم باللغة التركية . ولكن هذا العهد الحر لم يكن طويل الأمد ، لأن الاتحاديين الذين استبدوا بالسلطنة بعد الدستور ، لم

يلبثوا أن عمدوا إلى سياسة تتريك العناصر ، فكموا الأفواه ، وضيقوا على الحريات ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى بويلاتها ، وكان جمال باشا خلالها كسيف ديموقليس ، مسلطا فوق رأس كل مفكر . فوقفت من جراء ذلك عجلة الثقافة ، فى بلاد عانت من مصائب هذه الحرب مالم يعانه قطر آخر ـ ولا سيما لبنان ـ ولا بدع فى ذلك ، فقد كنا خلالها ، ندفن الأوراق تحت الأرض ، أو نحرقها ونمزق الكتب ، خشية أن يكون فيها مايدينا أمام المحكمة العالية العسكرية .

م — تطور العراق الثقافى :

العراق ذلك القطر الشقيق الذى احتضن حضارة العباسيين الزاهرة ، انقلب من بعدهم إلى بلاد أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة ؛ فقد زهد فيه أهله من جراء توالى الفتن ، فهجروه ، واستحكمت الأمية بين المتخلفين منهم ، فغمرت الرافدين موجة من الجهل ، لها أول وليس لها آخر .

غير أن هذه الظلمات التى شملت العراق خلال الحكم العثمانى ، كانت تخترقها أشعة أنوار من العلم ، تصدر عن جانب المقامات المقدسة ، ذلك أن مدارس النجف الأشرف ، والكاظمية ، وكربلاء ، والحلة ، وسامرا ، كانت لاتبرح عامرة بعشرات الألوف من طلبة العلم والدين ، وكان هؤلاء يتلقون مع دروس الفقه والتشريع ، دروسا فى اللغة العربية وآدابها والتاريخ وغيرها ، فيضيئون بمعارفهم سبل ذلك العهد الأسود ؛ يرافقهم زملاء لهم تخرجوا فى بغداد والموصل ، فى المعاهد الدينية الأخرى ، وأتقنوا أيضا الآداب العربية .

وقد أشاد بعض المؤرخين بالازدهار الذى أصاب البصرة إبان حكم على باشا إفراسياب ، منذ سنة ١٦٢٤ م ، وبالغوا حتى شبهوا ذلك العهد بأيام هارون الرشيد . كما أنهم أشاروا إلى ظواهر تقدم على برزت

فى بغداد منذ صدر القرن الثامن عشر ، وذلك إبان حكم داود باشا آخر المماليك .

هذا ، ولما استتب الأمر للسلطان محمود الثانى ( ١٨٠٩ — ١٨٨٩ م ) بعد الفتك بالإنكشارية ، وأنشأ المدارس العالية فى العاصمة ، كما ذكرنا فى البحث السابق ، حبب إلى بعض الأسر العراقية إيفاد أبنائهم إلى تلك المعاهد ، تأهبا لخدمة الدولة ، فى الوظائف العسكرية والمدنية . ثم عمد السلطان عبد المجيد ( ١٨٣٩ — ١٨٦١ م ) إلى نشر المعارف فى أمهات الولايات ، فأنشئت فى العراق المدارس المعروفة بالرشدية والإعدادية والعسكرية ، وبرغم أن الغاية من تلك المدارس كانت تخريج طبقة من الضباط والموظفين ، وبرغم أنها كانت تحرص على نشر اللغة التركية دون العربية ، حتى إنها تمنع التكلم باللغة العربية بين جدران المدرسة ، كونت طبقة من الشبان مثقفة ، كانوا إلى جانب خريجى المعاهد الدينية أهل الفكر والرأى فى بلاد الرافدين .

وقد أنجبت الموصل فى تلك الحقبة كثيرا من الأدباء والعلماء ، نذكر منهم ابن الصباغ ( ت ١٨٥٤ ) ، وعبد الباقى العمرى ( ت ١٨٦٢ ) ، وعبد الغفار الأخرس (ت ١٨٧٣) ، وهو أشهرهم ؛ كما أنجبت بغداد المؤرخ شهاب الدين الألوسى ( ت ١٨٥٤ م ) وغيره .

ثم رأت ولاية بغداد فى أيام مدحت باشا ، واليها منذ سنة ١٨٦٩ ، عهدا مليئا بالنشاط ، ليس فى صعيد المعارف فحسب ، بل فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية كذلك . ذلك أن هذا الوالى عرف كيف يستثمر عطف السلطان عبد العزيز على الإصلاح ، فمضى فى هذه السبيل إلى الأمام ، ونشر المدارس الابتدائية فى الأقضية العراقية ، وأنشأ مدرسة ثانوية فى بغداد ، وفتح مطبعة كانت تصدر جريدة رسمية ، أسماها الزوراء .

ولكن هذه المدارس كانت تنشئ طلابا أتراكا فى اللسان ، أتراكا فى الاتجاه ، بعدوا عن قومهم بعدا كثيرا ، فى المستوى الاجتماعى ، وفى الشعور القومى . وقد توخت دائرة المعارف الإنكليزية التى صدرت أواخر الحكم العثمانى الإشارة إلى هذا ، حيث قالت فى الكلام عن العراق : «تقدر المسافة التى تقدمتها سوريةعلميا بالنسبة للعراق ، بنحو نصف قرن ، وربما كان مصدر ذلك ، الوعى القومى البارز فى بلاد الشام . وأما العراقيون فما كانوا يأبهون للقومية قط ، بل كانوا قليلى المبالاة باستعمال اللغة العربية فى أعمال الحكومة ، على رغم أن تركية اضطرت من جراء ثورات اليمن المتعاقبة ، إلى التصريح بأن اللغة العربية هى لغة رسمية .

غير أن العراق وإن شهد بعد مدحت باشا حقبة رجعية فى المعارف ، سببها إهمال الحكومة ، كان له بعض العوض وقتئذ بالمدارس الكثيرة ، التى افتتحتها الإرساليات الدينية الأوربية ، التى تسربت إليه منذ القرن التاسع عشر ، بطريق خليج فارس ، فأنشأت فى أمهات المدن المدارس على اختلاف درجاتها ، ووجهت التعليم هناك توجيها حديثا ، ساعد على بث الشعور القومى . أضف إلى ذلك أن هذا التدخل الأجنبى كان حافزا للمدارس الدينية القديمة ، على الأخذ بطرق الإصلاح ؛ كما أنه كان حافزا للأهلين ، على إنشاء بعض المدارس على النسق الحديث .

وقد حفلت بلاد الرافدين فى ذلك الوقت بنخبة من العلماء والأدباء ، نذكر منهم محمد سعيد الحبوبى ، والشيخ عبد المحسن الكاظمى ، وجميل صدقى الزهاوى ، ومحمود شكرى الألوسى .

ودخل العراق فجأة فى مرحلة من مراحل النهضة ، حينما أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ . وما كان مرد ذلك إلى انتشار الصحافة ، وتأسيس الأندية والأحزاب والجمعيات وافتتاح المدارس فحسب ، بل كان النقاش بين العرب والترك فى صدد الحقوق والواجبات ، ذلك النقاش الذى بدأ

فى المجالس النيابى بالآستانة ، ثم انتقل إلى الأوساط الشعبية فى الأمصار العربية ـ كان مثارا للإقبال على الصحف والمدارس على السواء ، فارتقت لغة الكتابة ، وتكاثر عدد المجددين فى الشعر ، فلمع نجم معروف الرصافى ، ومحمد رضا الشبيبى ، والدكتور محمد مهدى البصير ، ومحمد باقر الشبيبى ، وأحمد الصافى .

غير أن هذا الازدهار الوقتى لم يكن يقوم فى الواقع على أسس ثابتة ، ذلك أن العراق على اتساع أطرافه ، كان لا يزال حافلا بالأمية . وقد قدر مستر لونكرك نسبة المتعلمين فى مدن العراق سنة ١٨٥٠ بنصف فى المئة فقط ، وأضاف إلى ذلك قوله : « إن هذه النسبة لم تبلغ سنة ١٩٠٠ أكثر من خمسة إلى عشرة فى المئة » .

ولعمرى إن بلادا ما كان يوجد فيها أكثر من عشرة فى المئة من المتعلمين ، كانت بلادا لا تبرح تعتبر متأخرة ، وخصوصا إذا علمنا أن إحصاء الحكومة الرسمى لعام ١٩١٣ يعلن أنه لم يكن فى العراق لغاية تلك السنة أوفر من مائة وستين مدرسة ، لا يتجاوز عدد طلابها ستة آلاف تلميذ . . . !

ومع ذلك ، إن الحرب العالمية الأولى ، لم تبق على هذا العدد الضئيل من المدارس ، بل أقفلت ، وأفل معها حظ آل عثمان فى بلاد الرافدين .

ن — تطور جزيرة العرب ثقافيا فى عهد آل عثمان :

درست معالم العمران ، فى مهد عدنان وقحطان ، قبيل دخوله فى حوزة آل عثمان ، فتضاءل العلم فيه ، وأصبح مقصورا على العلوم الدينية ، والآداب العربية ، وهو إلى ذلك محدود المدى ، غريب فى بيئات تغلب عليها الأمية .

وكان طلبة العلم فى نجد واليمن والحجاز وغيرها ، إذا أرادوا أن يتفقهوا فى الدين ، وأن يتضلعوا فى الآداب ، زيادة على ما عندهم ، أموا أزهر مصر ،

وقضوا فيه السنين الطوال . ثم متى عادوا إلى أوطانهم تطلع إليهم الشعب ، بتقدير أشد مما يتطلع الناس اليوم إلى العائدين من جامعات أوربة وأميركا ، الحاملين شهادات الدكتوراة وسائر الدرجات العالية .

واستنادا إلى هذه الثقة العظيمة ، التى كان يتمتع بها طلاب الأزهر وغيره من المعاهد الإسلامية عند أبناء جزيرة العرب ، كان هؤلاء المغتربون فى سبيل طلب العلم ، أكثر حولا من سواهم فى صدد القيام بالإصلاح ، وفى الانقلابات السياسية . من ذلك أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، الذى ينسب إليه المذهب الوهابى فى نجد ، كان قد طلب العلم فى بغداد والبصرة ؛ كما أن السيد محمد على الإدريسى ، منشئ حكومة الأدارسة فى عسير اليمن ، كان خريج الأزهر .

وقد نوهت دائرة معارف البستانى بأسماء ثلاثة من العلماء الأعلام ، كانوا ينتسبون إلى الحجاز ، اشتهروا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهم القاضى إسماعيل بن عبد الحق ، والشاعر عبد الحق بن محمد ، والمؤلف الواعظ القلقشندى . وكان من مشاهير علماء اليمن فى أواخر القرن التاسع عشر ، السيد محمد مرتضى الزبيدى اليمنى ( ت ١٢٠٥ هـ = ١٧٩٠ ) .

هذا ، ولما صح عزم السلطنة العثمانية على إنشاء المدارس الحكومية فى الولايات ، كما أسلفنا ، أصاب الحجاز ، ولاسيما مكة والمدينة ، شىء من هذا الحظ ، فقامت فيه المدارس الابتدائية والثانوية والعسكرية ، ومدرسة دار الفنون فى المدينة ؛ فكانت هذه المدارس مصدرا لانتشار بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، فضلا عن بعض اللغات ، ولا سيما التركية والفارسية .

وشاء السلطان عبد الحميد الثانى ( ١٨٧٦ — ١٩٠٩ ) ، عملا بسياسته الإسلامية ، تقريب جزيرة العرب إليه ، ففتح أبواب مدرسة العشائر فى الآستانة لأولادهم ، فدخلها نفر منهم من أبناء الخاصة ، ولكنهم قلما أفادوا بلادهم .

وقد زار الشيخ محمد بيرم التونسى ( ت ١٨٨٩ ) الحجاز ، فوصف فى كتابه « مستودع الأخبار » ركود المعارف فى تلك البلاد ، وانتشار الأمية، ثم قال : «وفى هاته المدة الأخيرة أنشأ بعض الهنود بوساطة الشيخ رحمه الله ، مؤلف كتاب « إظهار الحق » ، مدرسة بمكة المشرفة ، يقرأ بها الشيخ رحمة الله المذكور ومن معه من العلماء المجاورين، بعض دروس فى الهيئة والجغرافيا والطب ، وبعض علوم أخرى رياضية ، وعلم التصوف » . وخلص الشيخ محمد بيرم من ذلك إلى التنويه بالطريقة السنوسية هناك ، وبما كان لانتشارها بين القبائل من الأثر البالغ فى صلاح حالهم ، فى الناحيتين الدينية والأخلاقية . هذا ، واشتهر فى تلك الحقبة المؤرخ أحمد زينى دحلان ( ت ١٨٨٦ ) ، وهو من أهالى مكة .

وفى سنة ١٩٠٨ قام الحاج محمد زينى رضا ، وهو من أثرياء الحجاز ، بتأسيس مدرسة نظامية فى جدة ، خدمة لأبناء وطنه ، ولكن هؤلاء الناس كانوا على تأخر بلغ منه أنه كان حافزا لهم على انتقاد هذا المحسن ، زاعمين أنه ينفق الأموال فيما لايفيد .

بيد أنه لم يحفل بحملتهم عليه ، بل ظل ثابتا على مشروعه ، حتى أصبح قريب النجاح ؛ ولما انتشر خبره فى جزيرة العرب، اقتدى به أهل الكويت سنة ١٩١٣ ، والبحرين وسواهما من سواحل الجزيرة .

وأما فى اليمن الخضراء ، فإن المدارس من ملكية وعسكرية انتشرت ، أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثانى ، فى جميع الألوية ، وكانت الملكية على ثلاثة أقسام : ابتدائية ، ورشدية ، وإعدادية ، ومدة الدراسة فى الابتدائية ثلاث سنين ، وموادها الأمور الدينية ، والخط ، والحساب . وهى تدرس بالعربية ؛ وكذلك مدة الدراسة فى الرشدية ثلاث سنين ، وتشمل الهندسة والتاريخ والجغرافيا والطبيعيات . وأما الرشدية فمدتها سنتان ، وفيها شىء من العلوم العالية ، واللغات التركية والفارسية، بالإضافة إلى العربية . وكانت لغة

التعليم ، فى الرشدية والإعدادية ، كما فى العسكرية ، اللغة التركية . والناجحون من خريجى هذه المدارس كانوا يوفدون إلى العاصمة ، لاستكمال علومهم . ولا يزال ، حتى الآن ، فى اليمن كثيرون من خريجى هذه المدارس ، فى وظائف حكومة صنعاء العسكرية والمدنية ، ولا سيما الدوائر المالية ؛ وهم يتكلمون التركية بسهولة .

س — التطور الثقافى فى المغرب :

نشأت السلطنة العثمانية فى مطلع القرن الرابع عشر حين كانت وفود المهاجرين من مسلمى الأندلس ، أخذت تنزل فى الشمال الأفريقى منذ جيل سابق ، فرارا من ظلم الأسبان ؛ وبينهم طبقة من العلماء والصناع والزراع .

وقد كسب المغرب بهم ، ولا سيما سبتة وبجاية وتلمسان ، كسبا موفورا ؛ وكما أنجبت سبتة الشريف الإدريسى العالم الجغرافى ، نعمت فاس بلسان الدين بن الخطيب ، الوزير الغرناطى صاحب المصنفات ( ت ١٣٧٤ م ) .

ولما سقطت غرناطة (٨٩٧هـ = ١٤٩٢م) وهى المعقل الأخير للمسلمين فى الأندلس ، أخذ هؤلاء ينتشرون فى عدوة المغرب وما بعدها ، مدة قرن وربع قرن ، حتى إذا أصدرت أسبانيا ذلك الأمر الشاذ ، الذى خيرت فيه المتخلفين فى بلادها من المسلمين بين التنصر والجلاء (١٠١٨هـ = ١٦١٠م) أصبحت الهجرة تكاد تكون عامة .

— وإلى أين يذهبون ؟ . .

إنهم لم ينتشروا فى شمالى إفريقية ومصر فحسب ، بل ساقت بعضهم الأقدار إلى تركية وبلاد الشام .

وكانت تونس قد أصبحت محط الأنظار منذ أن قامت فيها دولة بنى حفص أواخر القرن العاشر . وقد التف حول عاهلها أبى زكريا الأول ( ١٢٢٨ — ١٢٤٩ م ) العلماء والشعراء ، فأمها اللاجئون وفيهم أهل العلم ،

وفيهم أصحاب الصنائع ، وكان من نتيجة ذلك، أنه برغم ما أصاب تونس بعد من اضطراب فى الناحية السياسية وفوضى الأحكام ، ظلت تتمع بالازدهار فى الناحية الأدبية . وقد أشار إلى ذلك أرثور بليكرين بقوله : « إن الذين خلفوا المولى أبى فارس على العرش ، وشهدوا ذلك العهد المضطرب ، كانوا هم أنفسهم فنانين وأدباء » .

ولكن ابن خلدون يذهب فى مقدمته التى كتبت أواخر القرن الرابع عشر ، مذهبا آخر ، فيشكو من حال المسلمين سواء أكانوا فى الأندلس أم فى عدوة المغرب .

ولقد وصف هذا المؤرخ معاصريه الأندلسيين، الذين عاصروا أواخر أيام بنى الأحمر ، بقوله : « وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم ، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ، ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب ، اقتصروا عليه ، وانحفظ سند تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه ؛ وأما الفقه بينهم فرسم خلو ، وأثر بعد عين ؛ وأما العقليات فلا أثر ولا عين ، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران ، وتغلب العدو على عامتها إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعاشهم أكثر من شغلهم بما بعدها » .

ثم لما تطرق ابن خلدون لأهل المغرب قال : « فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ينقطع عن أهل المغرب ، باختلال عمرانه ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها ، كما مر ، وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والأندلس ، واستبحر عمرانهما ؛ وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة ، وبحور زاخرة ، ورسخ فيهما التعليم ، لامتداد عصورهما ، وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلا كان فى دولة الموحدين بمراكش » .

وبعد، فكيف نوفق بين قول ابن خلدون الذى ينتقص أحوال المسلمين بالمغرب علميا وفنيا فى عهده ، وبين أقوال بعض مؤرخى الإفرنج الذين ينوهون بشىء من الازدهار الأدبى، كان لا يزال يتمتع به أولئك المسلمون، فى العهد الذى نشأت فيه السلطنة العثمانية ؟

الجواب عن ذلك أن ابن خلدون كان يقارن بين ذلك العهد المضطرب، وبين ما يعرفه من ازدهار العلم والفن فى عصر المسلمين الذهبى ، فيشكو من الانحطاط ؛ على حين أن مؤرخى الفرنجة كانوا يلقون عند مسلمى تلك الحقبة تراثا من حضارة لا يزال براقا ، بالنسبة لما كانت عليه أوربة وقتئذ من الظلمة .

هذا فضلا عن أن الشمال الأفريقى قد أصاب حظا من الازدهار الأدبى بمصر، من جراء انتشار مهاجرى الأندلس فى أرجائه ، كما قدمنا . وإذ كان ذلك الازدهار سحابة صيف، فلعل ابن خلدون لم يأخذه بعين الاعتبار.

- مراكش :

الواقع أن العلوم الدينية كانت لاتزال تحتفظ بمكانتها فى جميع إفريقية الشمالية ، وأما فى مراكش فقد كنت لاتجد بلدة فيها خالية من الدروس الدينية ، ومن علماء الفقه ، وأدباء يحفظون الدواوين الشعرية ، والمقامات الحريرية .

وكانت جامعة مسجد القرويين بفاس ، هى المرجع لمن أراد التوسع فى العلوم الدينية واللسانية وغيرها ، يؤمونها من كل صوب ، مثلما يؤمون الأزهر فى مصر، وجامعة مسجد الزيتونة فى تونس الخضراء . وكانت الطبابة والرياضيات تدرس فى هذه الجامعة فى عهد ازدهارها ، إلا أنها سبقت الدروس الأخرى إلى الاضمحلال خلال القرن التاسع عشر ، ثم لم يبق منها إلا دروس التوقيت .

وبلغ اهتمام المراكشيين بالتفقه فى الدين ، حدا جعل التقاليد المرعية توجب على الأسرة المالكة التضلع فى الشئون الإسلامية ، فضلا عن غيرهم من المتأهبين للمناصب الكبرى .

هذا إلى أن المراكشيين احتفظوا أيضا بالإنشاء وصحته ، أشار إلى ذلك الشيخ محمد بيرم التونسى ( ت ١٨٨٩ ) فى كتابه « صفوة الاعتبار » حيث قال : « ولعمرى إن صناعة الإنشاء فى الدول باللغة العربية ، كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش . وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكادت كتاباتهم أن تخرج عن الأسلوب العربى » .

وأراد السلطان مولاى حسن أن يتشبه ، أواخر القرن التاسع عشر ، بمحمد على باشا مؤسس الأسرة العلوية فى أوائل ذلك القرن ، فساقه اهتمامه هذا لتنظيم الجيش ، وإنشاء بعض المدارس ، وإرسال البعوث العلمية ألى فرنسا وألمانيا ، فى سبيل طلب العلوم الرياضية والحربية ، وكان بعض تلك المدارس لايقتصر على العلوم الدينية والأدبية ، وإنما يتعداها إلى تدريس الطب والصيدلة والطبيعيات والعلوم الرياضية ؛ كما أن جمعية الأليانس الإسرائيلية فتحت وقتئذ بعض المدارس فى المملكة المراكشية ؛ وممن اشتهر فى ذلك العهد المؤرخ أحمد الناصرى السلاوى المتوفى سنة ١٨٩٧ .

وهم كذلك فإذا بالاستعمار الفرنسى يبسط جناحيه على البلاد ، ويعتمد فى التعليم والتربية على السياسة الاستعمارية ، التى جرى عليها من قبل فى الجزائر وتونس ؛ ومن المعلوم أن هدف هذه السياسة إنما هو المحافظة على الأمية والجهل ، احتفاظا بالسيطرة المؤبدة على شعوب المغرب العربى .

وقد صرح بعض المسئولين الفرنسيين فى مراكش ، بأن لا فائدة البتة من تعليم العرب ، كما أن المرشال ليوتى الذى كان مقيما عاما قال :

١) يجب أن تكون المدارس الموجودة فى مراكش فرنسية الروح والغاية .

٢) إنه ليست لنا أية فائدة من تدريس اللغة العربية ؛ ويجب أن تهدف سياستنا إلى إبعاد القبائل العربية عن تعلم أبنائها اللغة العربية، التى لن نجنى من ورائها خيرا .

وعلى ضوء هذه المبادئ، فسحت حكومة الاحتلال المجال للإرساليات الدينية ، وأجزلت العطاء لها ، ووضعت العراقيل فى وجه مدرسى العلوم الإسلامية والعربية ، وضيقت على الفقهاء ورجال الطرق ، وهم فى أواسط إفريقية الشمالية المدرسون والمربون الذين كان لهم الفضل الكثير فى الحد من جهل القبائل .

وأما المدارس الحكومية التى فتحتها الإدارة الفرنسية ، فكانت جد قليلة، ذكر أندره ليختنبرجر A. Leichtenberger أن عددها سنة ١٩١٢ كان يبلغ ٣٧ مدرسة فقط ، فيها ثلاثة آلاف تلميذ ، ثم ازداد عددها فأصبح سنة ١٩١٧ يبلغ ١٨٠ مدرسة ، فيها عشرون ألف تلميذ فحسب . ومع ذلك لم يكن بين هؤلاء التلاميذ إلا عدد قليل من المسلمين ، لأن صلابة هؤلاء القومية والدينية ، كانت تحول بينهم وبين الإقبال على مدارس الاستعمار ، وهى تحارب دينهم وقوميتهم .

ف — تونس :

كان جامع الزيتونة بتونس ، الذى يرجع تأسيسه إلى القرن السابع الميلادى ، كجامع الأزهر بمصر ، المورد العذب لطلاب العلوم الدينية ، والآداب العربية فى المغرب، حتى إذا تبعت إيالة تونس تركية ، وتوالى تعيين قضاتها من الآستانة ، وبعض الموظفين من خريجى المدارس العليا فى العاصمة ، كان هؤلاء مصدرا لنهضة علمية جديدة فى البلاد التونسية ، خرجت عن نطاق رجال الدين ، إلى أوساط الطبقات العليا الشعبية . ثم غمرت الشرق الإسلامى موجة من اليقظة ، أصبحت ظاهرة للعيان منذ أواسط القرن

التاسع عشر . بدأت فى مصر، ثم امتدت ، فشملت سائر الأمصار، وفى جملتها تونس ، وقد صاحبها تطلع عام إلى التجديد ، ورغبة فى الإصلاحات المدنية الحديثة ، ولا سيما فى الناحية الثقافية .

وترجع هذه اليقظة إلى عهد الحملة النابليونية على وادى النيل، وما أعقبها من تجديد قامت به الأسرة العلوية ، على أساس المشروعات والتصميمات التى وضعتها تلك الحملة .

لذلك ، لم تعد تونس تستسيغ الوقوف عند حد الإصلاح الذى أدخلته وقتئذ على منهج التعليم فى الجامعة الزيتونية ، بل خفت إلى إنشاء المدارس الحديثة ، وعلى رأسها المدرسة الصادقية ، التى كانت تدرس اللغات الأجنبية مع اللغة العربية ، وأخذت ترسل البعثات إلى البلاد الأوربية ، للتخصص فى جامعاتها ، حين قامت دور الطباعة فيها لنشر الكتب والصحف.

وقد نوه الشيخ محمد بيرم التونسى المشار إليه، فى أثناء كلامه عن المعارف فى وطنه، بجامعتى الزيتونة والقيروان ، وبمدارس السيد أبى زمعة الأنصارى، فى جوار ضريحه ، وأشار إلى وجود مدارس قليلة فى عصره ، وكتاتيب لأهل البلاد، ومدارس غيرها للأجانب ، ذاكرا أن المدرسة الصادقية التابعة للحكومة ، كان يدرس فيها العلوم العقلية والرياضية ، فضلا عن بعض دروس كانت تلقى فى المساجد ، وفى بعض زوايا الصالحين بين القبائل .

هذا ؛ وقد اشتهر فى تلك الحقبة الشاعر الكبير محمود قبادو (ت ١٨٦٨م)، والشاعر الأديب سليمان الحرائرى ( ت ١٨٧٠ ) يعاصرهما الشيخ محمد بيرم ( ت ١٨٨٩ ) وخير الدين باشا ( ت ١٨٩٠ ) .

وخلال ذلك احتل الفرنسيون تونس ( ١٨٨١ ) ، وكان دأبهم محاربة اللغة العربية، لإحلال لغة فيكتور هيكو محلها ، لقطع صلة تونس بماضيها .

وفى سنة ١٨٨٣ أسست حكومة الاحتلال « إدارة العلوم والمعارف » ، ووضعت برنامجا لإنشاء مدارس ابتدائية فرنسية ، على غرار مدارس فرنسا

يؤمها الأطفال ، سواء كانوا تونسيين أو من الجاليات الأجنبية ، لينشئوا نشأة فرنسية صرفة .

ولم يكن للغة العربية أى حظ فى هذه المدارس . ولكن العرب لم يسكتوا عنها ، وقاطعوها ، إلى أن أجبروا السلطة الفرنسية على إدخال اللغة العربية فى المدارس الابتدائية المعدة للعرب وحدهم ، وكانت تسمى « المدارس العربية الفرنسية » . ومع ذلك اعتبرت السلطة لغة البلاد من المواد الاختيارية فى الامتحانات ، قصد إهمالها ، وعملت بذلك على صرف الطلبة عنها ، إلى الاهتمام باللغة الفرنسية فقط ، قصد النجاح فى تلك الامتحانات ، والحصول على الشهادات المدرسية .

وأما التعليم الثانوى فظل يقتصر على المدرسة الصادقية . وكانت المدارس الخصوصية تلاقى مقاومة من قبل الإدارة الفرنسية ، ولم تكن هذه الإدارة تمنح الرخص لطالبى إنشائها إلا بعد صعوبات تخلقها . كل ذلك كان يقع حين كانت السلطة تنشط المدارس الحكومية ، القائمة على المناهج الفرنسية ، وتساعد على نشرها للذكور وللإناث ، ابتدائية وثانوية ، كما أنها أقامت دارا للمعلمين . والواقع أنه كان إقبال الشعب التونسى على هذه المدارس دون إقبال الجزائريين على أمثالها ، ومع ذلك كانت كل محاولة حاولتها هذه المؤسسات الفرنسية ، لحط شأن القومية العربية ، كصرخة فى واد ، يسمع ضجيجها ، دون أن يكون لها أثر فعال .

ص — الجزائر :

يصدق على الجزائر إبان الاحتلال العثمانى ما أوردناه عن مراكش وتونس ، من حيث تضاؤل التعليم وقتئذ ، واقتصاره على الدروس الدينية والعربية . ولكن الجزائر منيت بالاحتلال الفرنسى منذ أكثر من قرن (١٨٣٠م) ، فأمست فريسة للاستعمار ، الذى استفاد كثيرا من طول الزمن .

فالفرنسيون الذين تعرضوا لدين الجزائريين ولغتهم، باللجوء إلى أساليب تفضى إلى إضعاف كل منها مباشرة ، أو غير مباشرة، تمكنوا من فرنسة تلك البلاد العربية أكثر من أى قطر آخر .

وهنا ننقل عن كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » العبارة التالية : « هذا إلى أن المستعمرين كانوا فى الوقت الذى يضيقون فيه على التعليم الوطنى ، يجرون معظم مخصصات المعارف على مدارس المبشرين والفرنسيين ، وفى جملتهم اليهود ظهراء الاستعمار .

« ومن جراء هذه السياسة تأخرت المعارف عقب الاحتلال وذبلت ، بعد أن كانت زاهية زاهرة ، ويستشهد الجزائريون على صحة ذلك بقولهم : إن ٢٢٢ مدرسة كانت موجودة فى مدينة الجزائر وحدها قبل الفرنسيين ، وقد أغلقت بفضل رسالة الحضارة والتمدين » .

والواقع أننا قد رأينا بأم العين نماذج من تلك الطبقة التى خلقتها سياسة الاستعمار بالجزائر ، مستعينة بالتربية والتعليم .

رأيناها بعد الحرب العالمية الأولى ، إبان احتلال جيوش الحلفاء ولاية بيروت ، إذ كان بعض أفراد الجيش الجزائرى ، وهم مسلمون ، لايحسنون الكلام بلغة آبائهم ، وهم إلى ذلك كانوا إذا سمعوا المؤذن يدعو إلى الصلاة بلغة القرآن ، يهزءون بالأذان علنا ، ويرجمون المؤذن بالحصى .

ق — التطور الثقافى فى ولاية طرابلس الغرب :

وربما كان تاريخ هذه الولاية فى صعيد العرفان ، يشبه الشبه الكثير التطور الذى حصل فى تونس، مع الفارق فى النسبة : ازدهار فى إبان الهجرة الأندلسية لشمال إفريقية ، أعقبه ذبول من جراء استحكام الفوضى ، ثم ازدهار آخر خلال عصر آل القرمنلى الذهبى ، تلاه نهضة موضعية شعبية ، ترجع إلى التماس مع أوربة ، ولكنها نهضة كانت محدودة . هذا إلى أن الإصلاحات

العثمانية التى بدأت منذ السلطان محمود الثانى ، وتحققت أيام السلاطين عبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد ، طوال القرن التاسع عشر ، هذه الإصلاحات لم تلبث أن شملت ولاية طرابلس الغرب ، فأنشأت فيها طبقة شعبية متعلمة . وقامت فيها المدارس الرشدية والإعدادية والعسكرية ، أسوة بسائر الولايات العثمانية ، التى عملت على إنشاء العلوم الطبيعية والرياضية واللغات الأجنبية . وإلى ذلك ظل شمالى أفريقية محتفظا بالعلوم الدينية ، والآداب العربية ، على وجه عام ، ولا نستثنى من ذلك داخلية الجزائر وتونس ومراكش وليبيا . ويرجع الفضل فى نشر هذه العلوم ، فى الصحراء الكبرى وما حولها ، إلى مؤسسات دينية كانت على تنظيم كثير لا توجد أمثاله فى أى قطر آخر ؛ تلك هى الطرق الصوفية ذات الزوايا المنتشرة حتى فى أقاصى الواحات . ونخص بالذكر منها الطريقة السنوسية فى ولاية طرابلس الغرب ، وهى ذات تنظيم حكيم ، جعل زواياها الكثيرة حافلة بجيوش المريدين ؛ وكانت لهم ولمن جاورهم أفضل معهد للتهذيب والتربية . وبما لمشائخ الطرق من النفوذ الشخصى على مريديهم ، ذلك النفوذ الذى لا مثيل له عند سائر المدرسين والمربين فى العالم الراقى ، استطاعت الشعوب البدائية المنتشرة فى داخلية ليبيا ، وسائر أواسط إفريقية الإسلامية ، أن تعرف شيئا كثيرا من الآداب الدينية ، وقليلا من أصول الدين ، فتدمثت أخلاقها ، ورقت إلى حدّ ما طباعها البدوية .